داريا الحكاية

(رواية)

مازن عرفة

مدونة ابو عبدو

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

داريا الحكاية

(رواية)

داريا الحكاية

(رواية)

مازن عرفة

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

2023

داريا الحكاية

(رواية)

مازن عرفة

9 786256 928404
Printed Book ISBN: 978-625-6928-40-4
E-Book ISBN: 978-625-6928-41-1

عنوان الرواية بالإنكليزية

Daria the Story
(a novel)

Mazen Arafa

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات
مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

ميسلون
للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing

هاتف
باريس، فرنسا :0033 7 66 60 08 90
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 08 71
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.fr
البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

الغلاف و الإخراج: شيرين فوزي

الطبعة الأولى
تشرين الثاني/ نوفمبر 2023

المحتويات

إلى محمد «راوي داريا»

إلى فراس ومايا

الفصل الأول

داريا العنب

روح عاشقة أنا، انبثقتُ من جبال مهبط السماءات، ذات فجر حياة. أتجدد مع كل ربيع، مع تبرعم عناقيد العنب. أنا «حكاية داريا»، تعيش مع كل «انتفاضة حرية»؛ رابطة الدم مع ذاكرة الأرض.

حمراء دافئة تربة أراضينا، شرقيّ «نهر الأعوج»، مشبعة بغزارة مياهه، تعشقها كروم العنب. ترتسم حدودها بأرواح حجارة، تغتسل كل فجر بالندى. وإذا ما مرت سواقٍ على أطرافها، نهضت سياجات عاليات، تخفي ظلالها الليلية، تحت ضوء القمر، حكايات الجن الريفية.

تنهض «عرائش العنب» أيضًا في بيوتنا الريفية. تتمدد غصيناتها فوق الفسحات، معرّشة على سقالات خشبية من شجر الحور الحنون. تظلل عصرياتنا من شمس الصيف، عندما نجلس مع ضيوفنا، تحت عناقيدها المتدلية ثريات، نتسامر، ونحن نشرب الشاي والقهوة.

«عصافير الدوري» والحمام البري واليمام تأمن لنا، وتألفنا. تبني أعشاشها في فتحات أطراف سقوف «دورنا» القديمة، المبنية من الطين والخشب. يمتلئ نهارنا بموسيقى الزقزقة والهديل. إلا أن العصافير لا تنفك تنقر حبات العناقيد المتدلية من العرائش، لامتصاص

حلاوتها. عندما تنفتح القشرة، يتتالى هجوم الحشرات الطائرة عليها؛ النحل والزلقط، والأخطر الدبابير. تلسع أحيانًا الأولاد الغافلين، فنفرك مكان اللدغة بالثوم، المتوافر دائمًا كمؤونة، معلق على جدار. وحتى تستمر في البيوت بعض عناقيد العرائش إلى نهاية الصيف، نُلبسها أكياسًا قماشية رقيقة، لرد العصافير والحشرات عنها. وعندما نرغب بإكرام الضيوف، حين انتهاء موسم العنب في الأسواق، ندعوهم إلى عصرية أو أمسية في باحة الدار، ونقطف لهم بضعة عناقيد مكيّسة.

في بداية الصيف، نقطف قسمًا من الوريقات الطرية لشجيرات العنب في الكروم، كي يتخلل الضياء غصيناتها أكثر. نرتبها مساء بأكداس، من أجل بيعها صباحًا في الأسواق الدمشقية. أهل «الشام» يحبونها، يلفون بها حشوات الأرز، في أشهر طبخاتهم؛ «اليبرق»، و«اليلنجي». ويخللون قسمًا منها بالتمليح، من أجل حفظها للشتاء. وعادة، نتناول في العصريات لقيمات «التبولة» بوريقات العنب الطرية، المكتنزة بحموضتها الطبيعية. نقطف أيضًا قسمًا من عناقيد الحصرم، كي تقوى بقية العناقيد. نبيعه في الأسواق من أجل عصيره الحامض، الذي يُضاف إلى السَلطات. ويتم تخليله أيضًا من أجل استعماله في الشتاء. لسنا معتادين على عصير الليمون مع الطعام، إذ إن زراعة أشجاره نادرة في مناطقنا. ولشهرة عنبنا، فإننا نصرّف موسمنا منه كاملًا، في أسواق دمشق القريبة، لا يبقى منه إلا القليل لنحوله إلى «الزبيب»، أو «الدبس الحل و«، أو «النبيذ».

احفظوا أسماء أنواع عنبنا في «داريا»؛ «الزيني»، و«البلدي»، و«الحلواني»، و«خدود الست»، و«الأحمر الدوماني»، و«السوادي»،

و«الإفرنجي». لا تنسوا «الحكاية»، دعوها منسوجة بعمق في الذاكرة؛ الأرض رُويت بدماء الأجداد، فلا تتخلوا عنها لـ «الغزاة الغرباء».

جدكم كان حقل قمح، عشقتُ ذهبَ سنابله. منحته قبلة الحياة، ذات فجر، فنهض ابنًا لي، وأضحى شابًا، متدفقًا بالنشاط. أودعكم، سأترك، ابني؛ جد العائلة، يكمل «الحكاية».

أنا جد العائلة. لا أتذكر نفسي إلا شابًا، بعد أن كنت حقل قمح. متدفق الحيوية، ألبس أنيقًا في السهرات؛ شروالًا أسود بزخارف ذهبية على الجانبين، وكوفية بيضاء مخططة بالأسود، أرميها حول عنقي بعفوية. في الأعراس، لا يباريني أحد في مهارة الرقص، على قرع الطبل والمزمار. ما إن تنزل إلى ساحة الرقص صبية، تلوّح بمنديلها، حتى يشتعل دمي، وأقفز إليها الأول، وسط تصفيق الرجال، وزغردة النساء. يدور رأسي، ولا أبصر إلا صبيتي، تنشلح بخفة في الهواء. ألوّح بكوفيتي منتشيًا، وأقرع بقدميّ الأرض النائمة، أوقظها من سبات الدلال، كي تمنحني طاقة القفز عاليًا نحو السماء، فأقطف نجمة، أزين بها شعر صبيتي. تلاحقني والدتي، «سيدة الكروم»، بنظراتها مبتسمة «لن تكتمل رجولتك إلا بعروس، تملأ يومك ببسمة الصباح وقبلة المساء».

«كل الصبايا حلوات، يا والدتي، لكن أين هي عروسي؟».

تخفي ابتسامتها بطرف غطاء رأسها الأبيض» تراها كل يوم، ستعرفها بقلبك، ذات حكاية».

تصيبني الحيرة، متلهفًا للتعرف على عروسي.

أنهض كل فجر، مع قطرات الندى، تتكثف في روحي، وأمضي إلى حقل القمح، أعمل به بافتتان طوال النهار. ألتفت إلى كرم العنب، جانب الحقل، أرعى شجيراته أيضًا. أغازلها، أحدثها عن شوقي لعروسي. تسترخي وريقاتها بين يديّ، وتغريني عناقيدها بألق الضياء. لا أدري من يداعب الآخر، أنا أم الشجيرات. مع نسيمات المساء، أشعر بانفعال عميق، أود معانقة الكرم كله.

ذات عصر، ذات حكاية حلوة، أغفو في الكرم. تتطاول على جسدي غصينات الشجيرات، تدثرني بأوراقها الطرية. كنت أظنها الظلال، لكن همسًا بين الصحو والمنام يداعبني «وأنا أعشقك من زمان. أشعر بدفء يديك، وأنت ترعاني في النهار، وأفتقد أنفاسك في الليل».

يشتعل الحنين في القلب، وأسأل «أين أنت؟».

«أنا معك دائمًا، أنا كرمك، روحي متلبسة به. ابنِ لي دارًا حلوة، وسأنسل إليها عروسًا، في نهاية الموسم، تعيش معك، وتنجب لك الأولاد».

في الصباح أبدأ ببناء دار لعروسي. تتابعني والدتي بنظراتها، لا تخفي ابتسامتها الآن بطرف غطاء رأسها.

أبني ثلاث غرف واسعة، من حجارة الحقول، المدكوكة بالطين. أجعل الأسقف من أعمدة شجر الحور القاسي، تحمل دفوف شجر الجوز الحنون. أغطيها بطبقة من نبات البلان الشوكي، أحضرته من تلال الشمال، وأدكك فوقها التراب كثيفًا. ترتمي على طرف السطح

مدحلة، من الحجر الأبيض المصقول، بمقبض معدني طويل للجر. أدحل بها السطح الترابي، في أيام المطر، فلا تتسرب المياه إلى الغرف، ولا تنمو الحشائش فوقه. يزيّن أصدقاء لي، من حرفيّي «داريا» خشب الأسقف بنقوش وزخارف ملونة، تتوزع فيها شخوص وحيوانات ونباتات، تروي حكاياتنا الشعبية. أطلي الجدران من الداخل بالجير الأبيض، فترتدي ثوب عروس، أجدده في نهاية كل صيف. أترك فيها فتحات عميقة، لترتيب الفرش واللحف نهارًا، ونمدها على الأرض ليلًا، من أجل النوم. تنسدل على الفتحات ستائر قماشية، بتوريقات ألوان خريفية. يصنع لي جيراني النجارون نوافذ وأبوابًا من أخشاب السنديان والزان، أغطي فتحاتها بزجاج ملون، تتسلل أشعة الشمس عبره إلى الغرف مثل حلم. أمدّ الأرض بسجاجيد سميكة، في الأشهر الباردة، وبسط وحصائر ملونة، في الأشهر الدافئة.

أرفع في مدخل الدار أعمدة آرامية، منقوشة التيجان، موجودة في المكان، منذ غابر الأزمان، وأوصل بينها بقناطر حجرية. يقدم لي حداد «البلدة» العجوز مدفأة حطب كبيرة هدية، لم يعد يصنع أحد مثلها بعد موته. أضعها في «غرفة الجلوس»، من أجل أيام الشتاء الباردة. الحطب وفير، أجمعه من الأغصان اليابسة في الكرم، ومن بقايا المحصول في بيدر الحقل. نشوي على جمرها البطاطا والبصل، وعلى سطحها المعدني الكستناء، ونغلي عليها إبريق الشاي، متحلقين حولها، نروي حكايات الشتاء.

في غرفة جانبية، أبني موقدًا من الآجر لتحضير الطعام، تتوزع حوله قدور نحاسية متنوعة الأشكال والأحجام. يأتي «المبيّض» إلى

حارتنا، في كل صيف، ليزيل عنها الصدأ والسواد، بمزيج من القصدير والنشادر والرماد. يجلس في رأس الحارة، مغنيًا وراء ناره، تراقبه النسوة، وهن مدهوشات من سحره في إعادة نحاسها متألقًا. في عمق الغرفة، تصطف خواب قرميدية، متعددة الأحجام، لصقَ الجدار، أملؤها بمؤونة الشتاء؛ من: طحين، وبرغل، وكشك، وعدس، وزيت، ولحم مُقدد بالسمن البلدي. أمام الغرفة، تتوضع أجران قديمة، من الحجر الصلب المحفور، نتوارثها من الأجداد، جيلًا وراء جيل. نستخدمها لتمزيق اللحم من أجل الطبخ، بـ «مخباط «من الخشب القاسي. إلى جانبها، أضع «جاروشة» من الحجر البازلتي الأسود، أحضرته من جبال الجنوب البركانية، لأجرش القمح والعدس. في طرف الباحة، ينهض «دست» ضخم، نوقد تحته نارًا كبيرة، في نهاية كل صيف، لسلق القمح، من أجل الحصول على البرغل. نفرد الحب المسلوق على السطح، فوق حصائر، كي ينشف، قبل أخذه إلى طاحونة «البلدة»، التي تدور حجر الرحى فيها بمياه النهر المتدفقة. وأنصب بجانب الحصر أعواد «خيال المآتة»، يرتدي كل منها قبعة وسترة قديمة، لإخافة الطيور.

إلى جانب المطبخ، ترتفع غرفة التنور، تتوسطها حفرة مطلية بالغضار الأحمر، يلتهب فيها الجمر. نتوزع، نحن والجيران، أيام الخَبْزِ على مدار الأسبوع. تعشش في التنور رائحة الخبز الشهية، وأصداء أغنيات النسوة، وهن يداعبن العجين، متحولًا بين أيديهن إلى أرغفة ساخنة. يتقافز الأولاد أمام مدخله، منتظرين فطائر الزيت والزعتر والجبن والمُحمّرة، الساخنة الشهية.

أبني سورًا طينيًا حول البيت، من حجارة الحقول، مع بوابة خشبية عالية، يستطيع بغلنا عبورها مع سلال العنب على ظهره. يحيط

السور بفسحة واسعة أمام الغرف، أرصف الممرات فيها بأحجار صغيرة. نجلس في الفسحة على الحصائر، متكئين على الأرائك، نتسامر مع الضيوف، في عصريات الصيف وأمسياته. أزرع في طرفها دالية، تُعرّشُ على سقالة من خشب الحور. على مدار السور، من الداخل، أزرع شجيرات رمان، وعند البوابة شجرتي صنوبر. في وسط الفسحة، أرعى شجرة زيتون معمرة، تقول والدتي إن عمرها مئتا عام. تضيف أنها مقدسة، وحكاية عائلتنا منقوشة على جذعها وأغصانها رموزًا سحرية. بعيدًا عن ظلال الأشجار، أترك مساحة من الأرض، مفتوحة للشمس، لزراعة الخضراوات. في طرف الفسحة، وسعت بئرًا قديمة، عمقها عشرة أمتار، تمتلئ بالمياه في الربيع حتى منتصفها، وفي سنين الخير، حتى مصطبتها الحجرية. استخرج منها الماء بدلو جلدي أسود، مربوط بجنزير، يلتف على ساعد خشبي دوار. بعيدًا عن غرف المعيشة، أبني زريبة صغيرة لبغلنا، الذي أستخدمه في فلاحة الحقل، ونقل سلال العنب إلى السوق. إلى جانب الزريبة، يستلقي محراث خشبي، بسكة حديدية، وبضع مجارف ومعاول.

أعمل على بناء الدار في الصباح، وأذهب لعروسي، كرم العنب، في المساء. أحدثها، كيف تمضي خطوات تجهيزها. في المرة الأخيرة، أذهب عصرًا إليها، لم أجد ما أقوله سوى «أصبحت الدار جاهزة، يا عروسي».

أعود إلى الدار، ما إن أصل إلى البوابة، حتى أسمع من الداخل زغردة النساء؛ والدتي وقريباتي والجارات. كانت عروسي هناك، تجلس في صدر البيت، تُرحب بها الأغنيات... «كرم العنب»، جار «حقل القمح»، أضحى عروسًا لي، وجهًا لا تفارقه الابتسامة.

والآن، أترك عروسي؛ جدتكم، تكمل الحكاية.

أنا جدتكم، كنت كرم عنب، يسترخي في أشعة الشمس. عشقتُ جدكم، منذ أن كان حقل قمح جانبي. وازداد عشقي له، عندما أضحى شابًا، يرعاني طوال النهار. وحين بنى دارًا حلوة لي، قدمتُ إليه عروسًا، ذات عصر «حكاية».

يستمر عرسنا سبعة أيام بلياليها، لم تنقطع فيها الطنابر، التي تجرها البغال، عن القدوم إلى دارنا، من البلدات المجاورة. محملة بالطعام؛ بخراف وطيور، وأكياس برغل، وخوابي لبن، وسلال فواكه، وعلب حلويات ومربيات، وفخاريات عسل.

منذ الصباح، يوقد الرجال نيران حطب كبيرة أمام الدار، لطبخ وليمة الغداء يوميًا؛ «دست» للبرغل، وثان لـ «الشاكرية»، والثالث لـ «الكبة باللبنية»، ورابع لـ «اللحوم»، دون أن تنقطع أهازيج الفرح. تنتشر من التنور رائحة الخبز الطازج الشهي، مع الزغاريد. عند الظهر، تُوزع مناسف الطعام على مفارش ملونة، نمدها أرضًا، في فسحة الدار. يأتي الضيوف والجيران إلى الوليمة اليومية عصرًا، دون دعوة، محملين بالهدايا؛ فرش، وملابس، ومطرزات، وأوانٍ، وزجاجيات. فاض بيتنا بالهدايا. عند المساء، تنعقد حفلة الدبكة والرقص، على أنوار الفوانيس، ونيران المشاعل. يستعرض الشباب مهاراتهم بلعب السيف والترس أمام الفتيات، وهم يتقافزون في الهواء. تتغاوى الفتيات بأثوابهن الريفية أميرات، ينفلت شعرهن مع النسيمات حكايات. نرقص ونغني إلى ما بعد منتصف الليل، وقد انجدلت حكايات عشاق. يأتي مصور «البلدة»، الأرمني العجوز، إلى العرس بصندوق التصوير،

يلتقط صورة لي ولجدكم. مازالت معلقة حتى الآن على الجدار، في إطارها الخشبي، وراء زجاج. في وقتها، لم يكن لدينا تصويرٌ إلا بالأسود والأبيض، لكنه يختزن الحنين إلى أيامنا القديمة الحلوة.

في الليلة الأولى من العرس أحملُ بالابن الأول، زين الشباب. تتتالى الأيام، وأنجبُ بعده شابين آخرين؛ شمسَيّ- النهار، وثلاث فتيات؛ بدور الليل. مع أن الحياة تأخذهم في اتجاهات مختلفة، إلا أن ما يجمعهم هو عشقهم لي أنا؛ «كرم العنب»، و«روح البيت».

مازلت أحتفظ حتى الآن، بأثواب سهرات العرس؛ البيض، والزهرية، والليلكية، والفستقية، المطرزة بالأزاهير الملونة، مع أكاليل الرأس، ومحارم الرقص. إلى جانبها، أحتفظ أيضًا ببدلة العريس جدكم؛ الشروال الأسود، والزنار العريض الفضي، والقميص الأبيض، والصدار الأسود، المطرز بالخيوط الذهبية، وسيف الرقص. أخبئها في صندوق الملابس الخشبي، المُبطن من الداخل بالمخمل الأحمر، والمُطعّم من الخارج بالصَدف.

أعشق ملابسنا الريفية الملونة، أخيطها على آلة خياطة؛ هدية جدكم لي، مع تجهيزات العرس. أوشيها، بالخيط والإبرة، تطريزات حكايات ملونة. اعتدت أن أرمي على رأسي غطاء ريفيًا، أبيض ناعمًا، ينسدل على كتفيّ، يكشف غرة شعري المنسدل أسود اللون. كان موسم العنب الأول بعد زواجنا وفيرًا، يفاجئني جدكم بشراء هدية غالية الثمن، من بيع غلاله؛ عقد عقيقي قرميدي من سوق «الشام». لكن أفاجئه أنا أيضًا بهدية، دون أن يعرف أني كنت أدخر المال لها طوال العام؛ ساعة جيب ذهبية، يعلّقها على قميصه، ويدليها إلى جيب

صدارته بسلسلة ذهبية. لا نخلع العقد والساعة، إلا وقت النوم.

في عرسنا تلقينا هدايا من الأقارب والأصدقاء، أحلاها أطقم أوانٍ ثمينة، مصنوعة من خزف «القيشاني». أطلب من جدكم أن يبني رفًا طينيًا، على جدار «غرفة الجلوس»، بارتفاع لا تطوله الأيدي. أصفّها هناك، أتغاوى بها أمام الضيوف، لا أستعملها إلا في المناسبات العائلية. على مدى خمسين عامًا، أجمع أواني القيشاني النفيسة؛ من صحون، وزبادي، ومطبقيات، وأباريق، وفناجين، ومزهريات، وقوارير، بمختلف الأحجام والأشكال، ورسوم فنية ملونة؛ بالفيروزي، والكحلي، والأخضر، والأحمر. أصبحت واحدة من سيدات «داريا» المعدودات، المعروفات بجمع تحف القيشاني الثمينة، بل والأكثر بينهن خبرة بجمالياتها. زوجي كريم معي باستمرار، يمنحني النقود دون حساب، كي أشتريها من بيوت العائلات العريقة، وقد ورثوها من الأجداد. وأذهب باستمرار إلى أسواق «دمشق القديمة»، أترصد النفيس منها. يحاول مرة أحد تجار التحف القديمة الدمشقيين الحصول على مجموعتي، بدفع مبلغ خيالي ثمنًا لها. لم أرفض أنا فقط، بل وزوجي أيضًا، والأهل جميعًا. كان القيشاني روح دارنا. هل كان من الممكن أن تعيش دون روح؟

إلى جانب طقوم القيشاني، وخياطة الملابس المطرزة، أشتغل لوحات فنية، من الصور القماشية، المشدودة في أطر خشبية. أزينها بالبرق المتألق، والخرز الناعم، مستعينة بإبرة الخياطة، مستلهمة حكاياتنا الشعبية. أعلق اللوحات المشغولة على جدران الغرف، وأهدي بعضًا منها إلى الأقارب والمعارف في المناسبات، دون أن

أفكر ببيع قطعة منها، رغم الطلب عليها. أجمع البرق والخرز، في علب صغيرة، حسب الأحجام والألوان. ورغم محبتي للأحفاد، أخفيها عنهم في غرفة النوم، وأقفل عليها، حتى لا يعبثوا بها، ويبعثروها.

أحب اجتماع الجيران والضيوف في باحة دارنا، عصريات الصيف وأمسياته. يحضرون دون دعوة، يقرعون الباب، ويدخلون. نجلس تحت العريشة، بين أحواض الزهور، بعد أن نرش الأرض ماء، من أجل ترطيب الجو. يتلهى الأولاد حولنا بتسلق شجرة «التوت الهزاز»، يتناولون أكباشها الشهية. زرعها الجد في باحة الدار، ونمت باسقة بثمر وفير. الدار دون ضيوف موحشة، خرابة بوم. ابني الأوسط محمد يقول إن الابتسامة لا تفارق وجهي، عندما يحضر الزوار. لذا، لا تنمو التجاعيد عليه... هكذا يقول.

أترك لكم الآن أولادي، يروون بقية «حكاية» عائلتنا، «حكاية» كل عائلة، في «داريا العنب».

أنا محمد، الابن الأوسط في العائلة. درست في الجامعة، وأعمل في وظيفة رسمية. أيام العطل والإجازات مخصصة لكرمنا وحقلنا. بقي والدنا طوال عمره فلاحًا، يفخر بأرضه، وداره، ولباسه الريفي. لا نتذكر تحت جناحه إلا الدفء والأمان، والمؤونة الوفيرة في الدار، والضيوف الدائمين في الأمسيات.

في بداية الستينيات، كان والدي أول من اشترى جهاز تلفزيون في حارتنا. يبث وقتها بـ «الأبيض والأسود»، بضع ساعات في المساء. يصل الجهاز إلى الدار، في شتاء ماطر، ونتلقاه بالتصفيق والأهازيج. سرعان ما تتوارد جموع الجيران والأقارب مهنئين، يملؤون غرفة

الجلوس. يخلعون أحذيتهم عند عتبة الباب، ويتمددون مباشرة على السجاد يتفرجون، لا يبقى مكان لوضع قدم على الأرض. تتكرر هذه السهرة في كل ليلة، لكن والدي، الذي يأتي من الحقل متعبًا، يقول للضيوف «استمتعوا أنتم، تصبحون على خير». يمضي إلى غرفة النوم، فيما لا تنفك والدتي وأخواتي وهن مسرورات يقدمن القهوة والشاي لهم.

في أيام الشتاء، تمد الوالدة حبالًا لنشر الغسيل، في غرفة الجلوس، حيث لا تنطفئ المدفأة. تسقط ظلال الملابس علينا، ونحن نتمدد أرضًا، نشاهد التلفزيون. أسأل الوالدة باستمرار «متى ستلمين الغسيل؟».

ترد عليّ ضاحكة «هل تتفرج على التلفزيون أم على الغسيل؟ إذا كنت ترغب، فخذ التلفزيون، وتفرج عليه تحت المطر».

لم يعرف والدي إلا التعب، في الخمسة والسبعين عامًا، التي عاشها. كانت رؤيته للحياة بسيطة عفوية؛ يعشق والدتي، ويعمل طوال النهار في الحقل والكرم. يردد دائمًا «الحياة تعب مستمر، وعندما يأتي الموت، ستأتي الراحة، وأعود حقلًا».

يعاني المرض الشديد في أواخر حياته؛ يصيبه السرطان في الرئة. يمنعه الأطباء من التدخين، يفرض عليه إخوتي حصارًا شديدًا لأجل ذلك. أعرف أن المرض استشرى في جسده، ولن يفيده أي علاج، فأخذت أمنحه سجائري في السر. غيرت ماركتها، كي يدخن ما يحب، بعد أن تخلى عن «سجائر اللف» القديمة. في لحظات موته الأخيرة، يطلب سيجارة، أضع واحدة بين شفتيه، أولع القداحة في الهواء، موحيًا له أني أشعلتها. يمتص اللفافة بمتعة شديدة، بعد ثلاث

دقائق يموت. نسهر الليل حول جثمانه، الملفوف بغطاء. عندما رفعنا الغطاء عنه في الصباح، لم نجد له أثرًا. قالت والدتي «عاد حقل قَمحٍ، سألحقه ذات يوم كرمَ عنبٍ يجاوره»... حدث هذا في عام 2005.

أترك لكم الآن «حسن»، الأخ الأكبر، يكمل «الحكاية».

أنا حسن، الابن الأكبر في العائلة، سأتبادل إكمال «الحكاية» مع الإخوة والأخوات.

أحب صيد الطيور والحيوانات البرية، مثل معظم الشباب في «البلدة». الحقول والكروم مترامية حولها، تعيش فيها طيور الحجل، والسُمّن، والزرازير، والفرّي، والقنابر، والترغل، وعصافير التين، والحمام البري، إلى جانب الأرانب البرية. في دار كل عائلة على الأقل بارودة صيد؛ «جفت»، بعين واحدة أو عينين، وشبابها يتقنون استخدامها. نتفاخر بإطلاق «الفشك على الطاير»، لإصابة الطرائد في أثناء طيرانها، وأنا الأفضل. يستدعيني الأهالي لقتل أفعى، يكتشفونها بين أحجار سور دار، فطلقتي في الرأس لا تخيب. أمضي شبابي في البرية مع الأصدقاء، والبارودة لا تفارقني. أعود عصرًا إلى الدار، والطرائد مدلاة من حزامي. تشويها والدتي على الموقد، وتتناولها العائلة مع التبولة ومشروب البيرة.

عندما تزوجت، غادرت داريا، وأقمت في دمشق، بسبب عملي الرسمي، وانتهت حياة اللهو في أحضان الطبيعة. إلا أنني أزور الأهل باستمرار، مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع. حياتي أصبحت جدية، أقضيها بين العمل والمنزل، ليس فيها الكثير من الإثارة. لذلك أترك أخي الأصغر خليلًا يكمل «الحكاية»، لديه تفاصيل مغرية أكثر.

أنا خليل، الابن الأصغر في العائلة، الأشهر بين نجّاري الموبيليا في «البلدة». موهبتي في الحفر والنقش على الخشب لا يجاريها أحد. منذ صغري، لا تفارقني سكّيني، وأنا أقضي وقتي في التجوال بين الحقول مع الأصدقاء. أقطع بها أغصان الشجر، وأشذبها أشكالًا فنية. لكني لم أحب المدرسة، بصعوبة أنهيت الصف التاسع، بعكس الأخوين الكبيرين، اللذين ذهبا إلى الجامعة. ما إن أنهيت الخدمة العسكرية الإلزامية، سائق دبابة، حتى التفت إلى مهنة نجارة الموبيليا.

قبل زواجي، كنت أحب الاجتماع مع الأصدقاء، في سهرة تسلية بـ «أوراق اللعب»، أو «طاولة الزهر»، تمتد حتى الصباح. ورغم عدم محبتي للمدرسة، إلا أني مهووس بجمع الكتب والمجلات، شغوف بقراءتها. أشتريها من باعة «كتب الرصيف»، في «المدينة القديمة»، من دمشق؛ كتب تراثية، حكايات شعبية، روايات عالمية، مجلات قديمة، من بينها طبعات نادرة، منذ خمسينيات القرن الماضي. أكدسها في إحدى غرف الدار القديمة، على «كتبية»، في الجدار، تترامى فوقها بعشوائية منحوتاتي الخشبية. عندما تتذمر الوالدة من الفوضى، التي أزرعها في الدار، بمكتبتي ومنحوتاتي، أسألها ضاحكًا «وماذا نفعل بمقتنياتك من القيشاني؟».

بعد أن أنتقل الأخ الأكبر حسن للسكن في دمشق، قررت أنا وأخي محمد البقاء قريبًا من الأهل، في دار العائلة. نبني منزلين متقابلين من الأسمنت، في امتداد فسحة واسعة خلفها. نسّورهما بجدار حديث من الحجارة المنقوشة، نزرع على امتداده من الداخل شجيرات رمان.

ونترك بين المنزلين فسحة واسعة، مغطاة بسقالات عرائش العنب، مع ممرات عشبية، نزرع أطرافها وروداً جورية.

أزرع في طرف الحديقة، من جهة بيتي، ثلاث شجرات جوز، تنهض ضخمة باسقة من كثرة السقي؛ الجوز يحب المياه، يصيبه اليباس سريعاً دونه. ثمار الشجرات هذه تكفي مؤونة العائلة طوال العام، وخاصة لصنع مؤونة «المكدوس». يزرع أخي محمد، من جهته، شجرات تين، وليمون، ومشمش، وسفرجل. من أجل تأمين مياه السقي، أركب على البئر محركًا كهربائيًّا، يضخ المياه منه. نتخلص من الدلو الأسود، والساعد الخشبي الدوار وصرير جنزيره، الذي كان يرفع المياه. نغلق البئر بغطاء معدني، حتى لا يقع ففيه الأطفال، وهم ساهون. تحزن والدتي من هذه التغيرات في الدار. تردد «هذه الأشياء القديمة هي من رائحة المرحوم والدكم، من أيام الخير الطيبة، التي غمرتنا».

تحتفظ والدتي بدلو البلاستيك والساعد الخشبي والجنزير، إلى جانب أخشاب المحراث المهترئة، بسكته الحديدية الصدئة، والقدور النحاسية المسودة القديمة، في زاوية من الدار، ذكريات من والدي. لا تتخلى عن عادة الطبخ على الموقد القرميدي، رغم أننا اشترينا لها موقد غاز حديثًا. في هذه الأثناء، نستغني عن التنور في الدار القديمة، بسبب توفر الخبز اليومي في «فرن الدولة الآلي». بصعوبة، تسمح لنا والدتنا بالتخلص من بغلنا، الذي عاش معنا عمرًا، ولم نعد نستخدمه بوجود وسائل فلاحة حديثة.

عندما بنيت أقنانًا لتربية الدجاج والأرانب، في طرف الحديقة،

تستنفر العائلة ضدي، ويعارضني الجميع، رغم أن الأولاد يحبون اللعب معها. أستيقظ باكرًا، في الخامسة صباحًا، على صياح الديكة الشجيّ، مع والدتي وأخواتي البنات. نشرب القهوة ونتناول الفطور، في أرض الدار، قبل أن أمضي إلى العمل. ينهض محمد متأخرًا، في السابعة، ليمضي إلى عمله الرسمي، وهو يصرخ منزعجًا «هذه الديكة توقظنا قبل طلوع الضوء. طوال الليل، لا تتوقف عن الصياح، والدجاجات عن البقبقة».

ثم أخذت والدتي تتذمر «دجاجاتك تتقافز طوال النهار في الحديقة، تأكل البقدونس والنعنع والكزبرة. أزرعها وأنتظر نموها لتحضير السلطات على الغداء. أنت غائب طوال النهار في عملك، وليس هناك من يردها عن مساكب المزروعات».

نذبح الدجاجات والديكة، وتعمل والدتي منها وليمة، دعت إليها أفراد العائلة، لم أشارك بها حزنًا. نترك الأرانب محجوزة في أقفاصها.

أخبركم الآن شيئًا جديدًا من «الحكاية».

أنهي بناء منزلي، أخصص غرفة واسعة لأجل كتبي ومنحوتاتي الخشبية. أصنع لها مكتبة فخمة، من خشب الشوح، تغطي جدارين. وبما أنه لم يعد أحد يُعنى بترميم الدار القديمة، بعد وفاة والدنا، فاجأتني والدتي باستيلائها على إحدى غرف منزلي، لتضع فيها مقتنياتها الثمينة من أطقم أواني القيشاني.

أسألها» لماذا في منزلي، وليس لدى محمد؟».

«محمد متزوج، وأنت مازلت تبحث عن عروس؟».

«لكني سأجدها قريبًا».

« أنت في داخلك فنان، تقدر قيمة المقتنيات الفنية. «القيشاني» هو أخ لمنحوتاتك الخشبية، التي لا مثيل لها في بلدتنا».

والدتي الذكية تعرف كيف ترضي غروري.

أصنع ثلاث خزن جميلة، من خشب الزان، بواجهات زجاجية عريضة. ترتب والدتي فيها مقتنياتها من القيشاني، وتقفل عليها بمفاتيح، تعلقها على صدرها باستمرار.

عندما تَحضر عروسي، تتذمر باستمرار أمام أفراد العائلة «هذا ليس بيتي. تارة، أشعر أنني موظفة في متحف وطني، وتارة أخرى، في مركز ثقافي. والدتكم استولت على غرفة فيه لمقتنياتها من طقوم القيشاني، التي لا يحق لي لمسها، وزوجي خليل خصص غرفة ثانية لكتبه القديمة، التي لا أفقه منها شيئًا».

رغم انشغالي بعملي طوال النهار، مازلت مقتنعًا بأن في بيتنا كنزًا، مدفونًا تحته، من مئات السنين، لا بل في بلدتنا عشرات الكنوز، مخفية تحت الأرض. الجميع يسخر مني، خاصة مع فشلي في الوصول إلى كنزنا. أنسحب، لأنكم لا تصدقوني، وأدع أختنا الصغيرة سمية، تكمل «الحكاية» هنا، فهي رفيقة حياتي، تهتم دائمًا بمكتبتي ومنحوتاتي.

أنا سمية، الأخت الصغرى في العائلة. أكملت الدراسة في «معهد المدرسين»، وأصبحت معلمة في المدرسة الابتدائية، القريبة

من دارنا. أكمل «الحكاية» هنا، لأني أعرف خفايا أفكار خليل.

لخليل، أصغرنا، طباعٌ متقلبة. يبدو بسيطًا وعفويًا في حياته اليومية، إلا أنه يثور غاضبًا لأتفه الأسباب، سرعان ما يهدأ بـ «كلمتين حلوين»، خاصة مني. في بداية شبابه، أصابته لوثة البحث عن «كنوز مرصودة بالسحر»، متأثرًا بالحكايات الشعبية، التي يقرؤها في كتبه الشعبية. إلا أنه أصبح ممسوسًا بهذه الفكرة، عندما تعرّف على شيخ «مشعوذ دجال»، أقام في «داريا» لفترة من الزمن. يؤكد خليل لنا أن صديقه الشيخ أطلعه على مخطوطات سرية عتيقة، مكتوبة بخط اليد من قبل الجنيّين «هاروت وماروت». تستطيع نصوصها كشف طرائق الاتصال مع «ملوك الجان»، المسؤولين عن حراسة الكنوز المدفونة في «البلدة». كل ما يحتاجه، كي يستدعيها، هو شراء الكثير من البخور الغالي الثمن، وحرقه، في أثناء قراءة طلاسم مخطوطاته، من أجل الحصول على رضاها. عندما تحضر، تدله بعلامات وإشارات سحرية يقينية على مكان وجود الكنوز.

ينهمك الاثنان معًا في البحث عن الكنوز، في خرائب البيوت القديمة المهجورة، والآبار العميقة، والأراضي المقفرة، وسط سخرية العائلة منهما. يبرر أخي فعله بحاجته إلى المال من أجل مشروعاته الكبيرة، ومنها إنشاء ورشة نجارة موبيليا ضخمة، يعمل فيها لديه العديد من الحرفيّن. أما والدنا، الذي كان وقتها ما يزال حيًا، فيُعلّق على ذلك «اتركوه، لن تردعوه عن هوسه بالقوة، سيكتشف جنونه بنفسه بعد فترة قصيرة. الكنوز الحقيقية في الأرض هي الكروم والحقول، التي نرويها بعرقنا».

يطلب المشعوذ من أخي خليل زيارة دارنا، ويبدي رغبته في النوم عندنا عدة ليال، وعيناه لا تفارق أطقم القيشاني، على الرفوف حول الجدران. لكن والدتي طردته بعد دقائق من زيارته، وأقسمت بأن تطرد خليلًا معه من الدار، إذا جاء ثانية. حضر والدي من الكرم، لما علم بما حدث، ضحك ملء قلبه، وقال لها «دائمًا أنت قوية، وسيدة الدار».

يستقر الرأي بالمشعوذ، بعد قراءة الطلاسم السحرية في مخطوطة «كتاب الزمان»، مع حرق الكثير من البخور، على وجود كنز في باحة دارنا، تحت شجرة الزيتون المعمرة. يقول لخليل إن جنية تقيم في هذه الشجرة، وقد ألقى عليها التحية، في أثناء زيارتنا، وسمحت له بقراءة الرموز السحرية، المنقوشة على جذعها وغصونها. يؤكد له أن الكنز تحتها مرصود منذ القدم ببيضة طير عملاقة، ومحروس بثعبان ضخم.

يفاجئنا خليل بأن الكنز لن ينفتح إلا بوجود أخينا محمد، وعلى اسمه فقط.

يسأله محمد بسخرية «لماذا اسمي أنا بالذات؟».

«سيدنا الشيخ شرح لي بأن لديك اسمًا مقدسًا، «محمد»، بدون اسم ثانٍ مُلحق به، مثل «محمد عبد الله» أو «محمد معاذ»، فقط «محمد».

«الكثير من أهل البلدة يحملون الاسم نفسه، محمد، فلماذا أنا؟».

«صحيح، لكن والدنا يحمل أيضًا اسم محمد، كذلك جدنا

محمد، والاسمان لديهما غير مركبين، مثل اسمك».

«ماذا يعني هذا؟».

«هذا يعني أن اسمك «محمد، محمد، محمد»، وسيدنا الشيخ يقول إنه لديك قرين من الجن المسلم والمسالم، يعيش وينام معك. لذلك، فإن الكنز الموجود في بيتنا لن ينفتح «رصده السحري» إلا بوجودك.

يضحك محمد ساخرًا ومتأففًا «يا سلام، مادام لي هذا القرين، الذي يعرف سر الكنوز، فلماذا لا أستيقظ ذات يوم، وأجد كومة من المال قرب فراشي، أشتري شاحنة كبيرة، أسترزق بها، إلى جانب راتبي الصغير في الوظيفة؟ ثم هل يتفرج علينا هذا الجني، عندما أنام مع زوجتي؟».

يغضب خليل «لا تسخر من الجني، فقد يؤذيك. على كل الأحوال، أتانا الرزق الآن، فلا تدعه يفلت منا».

يُحضر أخي خليل معولًا ومجرفة، وسط دهشة أفراد العائلة، ويأخذ بحفر حفرة كبيرة وعميقة، عند شجرة الزيتون، بدلالات المشعوذ، وأنا أحاول ثنيه. تظهر بعض جذورها المتشعبة عميقًا في الأرض، فيعتبرها دلالة على صحة عمله. عند عمق ثلاثة أمتار، ينادي أخي محمد، الذي يتناول الغداء مع أسرته أمام الدار «تعال وقف دقائق معي، وصلتُ إلى العمق المطلوب».

يرد محمد ساخرًا «لكنني أتناول الطعام أنا وقريني الجني».

«أرجوك، كن جديًا معي مرة واحدة. قف فقط بجانب الحفرة،

أسمي بالله، وأضرب عدة مرات بالمعول، ويظهر الكنز المرصود. ربما سيكون مخبأً في صندوق له حلقة، عندئذٍ، ستنزل وتشدها بيدك، لأن الجني الحارس لن يسمح لأحد سواك أنت بفتحه. لكن إذا ظهر الثعبان، سيستكين على يد قرينك، الذي سيتحدث بشفتيك».

«لا، إذا ظهر ثعبان، سأركض هاربًا إلى نهاية البلدة».

يضرب أخي ضربة أولى، وثانية، وثالثة... وعاشرة، يستمر وهو يردد «غريب، ربما هناك خطأ ما».

بقي يضرب بمعوله حتى تعب، واستسلم يائسًا.

في اليوم التالي، كان المشعوذ قد اختفى من البلدة، لنكتشف أنه كان «يسرق» من أخي الكثير من المال، الذي يكسبه من عمله كنجار، بدعوى شراء البخور اللازم للحرق، حتى يحضر الأصدقاء الجن على رائحته الطيبة. وسنعلم لاحقًا، أنه أطال الإقامة في البلدة، بعد معرفته بوجود «كنز» حقيقي من أطقم القيشاني الثمينة عند والدتي. وطلب من أخي خليل إحضار أكبر قدر منها بالسر، حتى يتناول ملوك الجان طعامهم فيها، إذا ما دعاهم للغداء. لكن والدتي كانت قد أقامت «سحرها المرصود» على أطقمها، بعين لا تغيب عن مراقبتها. لم تكن تسمح لأحد بلمسها إلا بوجودها، حتى أنا نفسي، ففشلت سرقة الكنز الحقيقي من البيت. أما الحفرة، فقد تركها خليل مفتوحة، وهو حزين، وكاد أن يسقط فيها أحد أولاد الجيران، لو لم يردمها حسن ومحمد بالتراب.

مع اختفاء المشعوذ، تطير العلامات والدلائل السحرية عن الكنوز من رأس أخي. وعندما نسأله عن «كنوزه»، يتهرب قائلًا، «كان طيش شباب».

أترك الآن أختي الكبرى وفاء تتحدث، تريد أن تشارك أيضًا في «الحكاية».

أنا وفاء، الكبرى بين أولاد العائلة. رفيقة أمي في أعمال البيت واستقبال الزوار، وكاتمة أسرارها، أشعر أن عواطفها متشربة في روحي. حصلت على شهادة جامعية من قسم التاريخ، وأعمل مُدرسة. أحبني رجلٌ رائع من «البلدة»، درس الصيدلة. تزوجنا، ونسكن في بناء طابقي فوق صيدليته. لدينا شابان، يدرسان في الجامعة، مصعب في الهندسة الميكانيكية، وعروة في الهندسة الكهربائية.

الأخت الوسطى سميرة، تريد أن تأخذ دورها أيضًا في «الحكاية».

أنا سميرة، مثل خليل، لا أحب الدراسة. أقبل أول عريس يطلبني، وأنا في مقتبل العشرينيات؛ تاجرًا في الأربعينيات من عمره. لديه ورشة «تنجيد مفروشات منزلية»، يعمل فيها عدة حرفيّن. أغراني بسيارته الفخمة، ورفاهية منزله الحديث. اشترى لي الكثير من الملابس الأنيقة والحلي، فغضضت النظر عن كرشه وصلعته. أعرف كيف أستمتع بالحياة. زوّجنا باكرًا الابنة الكبرى خلود، لكهربائي سيارات، يمتلك ورشة صغيرة، والابنة الأصغر، بشيرة، لضابط في الجيش، برتبة «نقيب». لدينا أيضًا ولدان؛ ماهر يدرس في كلية الاقتصاد، يظن والده أنه سيدير ممتلكاته في المستقبل، أما طارق، فما يزال في المدرسة الثانوية.

في أعوام السبعينيات، انتشرت مظاهر التدين الاستعراضية في منطقتنا، ليتحول زوجي إلى متدين طقوسي أمام الناس؛ يرتاد المسجد

بلحية مشذبة، وسبحة لا تفارق يده، وطاقية بيضاء على الرأس. لكنه في البيت لا يمارس شعائره الدينية، ولا يتدخل في حريتي؛ في ملابسي، وزياراتي، يتركني أعيش كما في بيت أهلي. اغتنى حديثًا، بعد أن باع أراضٍ له، ووسع بثمنها ورشته. يرغب بمظاهر تدينه تقليد التجار الدمشقيين، كي يجد موطئ قدم بينهم. لكنه في السنوات الأخيرة، يجنُّ ويقرر فجأة أن يصبح إمام مسجد في «داريا»، يؤم المصلين فيه تطوعًا، دون التخلي عن إشرافه على الأعمال في ورشته. لم يكن هذا يزعجني أبدًا، مادام هو لاهيًا عني طوال النهار بأعمال ورشته ومسجده، ويؤمن لي حياة مرفهة.

تتدخل ابنة أخي محمد الكبيرة ريما، وتقول «دعيني أكمل أنا أيضًا، يا عمتي سميرة، بعضًا من الحكاية».

اسمي ريما، لكن الجميع ينادوني «موزة» تحببًا. أنا الأخت الأكبر في عائلة محمد، أختي حنين، وأخي أيهم. خصص أبي لنا في البيت الجديد غرفة، بنافذة عريضة، مفتوحة طوال الصيف على الحديقة، تظللها شجرة التوت. تجلس على مصطبتها قطتنا «فلة»، تستمتع بدفء الشمس، وتتبادل النظرات معنا، ومع الببغاء «مارك»، المربوط بسلسلة معدنية، على غصن من شجرة التوت. نرسم، أنا وحنين، بالألوان المائية على ورق مقوى مناظر طبيعية؛ جبلنا، وحقلنا، وكرمنا، ونعلقها معرضًا على جدران غرفتنا. تُسرّ بها جدتنا، وتقول «أنتم ترسمون «حكاية» عائلتنا. أما أيهم، فمهووس بألعابه الالكترونية، رغم تأنيب والدتي المستمر له.

عندي حقيبة زهرية، أضع فيها صور أصدقائي الحيوانات.

في النهار، نتحدث، ونتناول الطعام معًا. عند المساء، تمضي إلى الحقيبة، تنام فيها. عندي أيضًا لعبة «دبدوب»، أحمر اللون، ينام معي في الفراش ليلًا. أما حنين، فتفضل أن تلعب مع القطة «فلة»، وتتحدث مع الببغاء «مارك». عمنا خليل لطيف معنا، يسمح لنا، في أثناء غيابه عن البيت، بتقليب المجلات والكتب في غرفته، بشرط أن نعيدها إلى مكانها. لكن أصبحنا نشتري قصصًا ومجلات أطفال من مكتبة «البلدة»، خاصة بنا. يُركّب عمنا خليل لأجلها رفوفًا على جدار غرفتنا، يغلفها بأوراق ملونة، ويهدينا تماثيل من منحوتاته الخشبية، على شكل حيوانات، نزين بها غرفتنا. شاركت مرة في «مسابقة المعلومات»، في مجلة الأطفال «ماجد» الإماراتية، ربحت جائزة مئة درهم، أخبئها في العدد، الذي تم إعلان أسماء الفائزين فيه.

شدَّ لنا عمنا خليل مرجوحتين على أغصان شجرة التوت، لي ولحنين. تهزنا جدتنا، وهي تغني لنا «هز التوتة يا توات، تحت التوتة في بنات». نطير عاليًا بين أوراق شجر التوت، مع العصافير، وتحلق ضحكاتنا عاليًا. تقطف كل واحدة منا شمسًا ذهبية من السماء، تعلقها لنا والدتنا في عقد حول رقبتنا.

وأنا حنين، سأحدثكم عن «مارك» قليلًا، صديقي العزيز. هو ببغاء أفريقي غالي الثمن، يعيش معنا منذ خمس سنوات. أطعمه باستمرار، وأحادثه بمرح. من شدة ذكائه، واعتياده علينا، ينادي كلًّا منا باسمه، عندما نمر أمامه. إلا أنه أصبح يكره أبي، بعد أن قص له أظافر قدميه عميقًا، وجرحها له دون قصد، فتألم بشدة. من وقتها، ما إن يشاهده، حتى ينعق بجنون، ويصفق بجناحيه، راغبًا بالفرار منه. لكن

السلسلة المربوط بها تمنعه من الطيران، لا يهدأ حتى يبتعد عنه.

نحب بيتنا، لكن أمي متذمرة دائمًا من طلباتنا، وهي تريد المشاركة في «الحكاية» أيضًا.

أنا زوج محمد. لا يهدأ أولادي، ولا تنتهي طلباتهم، طوال النهار. تلاحقني «موزة» باستمرار «أمي، هزي المرجوحة، والتقطي لي صورة مع العصافير، وهي تنقر أكباش التوت، ثَمَّ مع جدتي، بين شجيرات الورد الجوري».

تناديني حنين «وأنا، مع «فلة» و«مارك»».

عندما يحضر أولاد الأخ الأكبر محمد، يزرعون الفوضى مع أيهم في الحديقة، وهم يتراكضون وراء الأرانب. يلاحقني أيهم بنداءاته «صورينا، ونحن نركض وراء الأرانب».

زوج خليل ودود معي، نُحّضر طعام الغداء معًا. لكنها تحب أن تتمايز دائمًا عني. يشتري لها زوجها خليل غسالة، ماركة «L.G. أتوماتيك»، تتغاوى بها دائمًا. لم أهدأ أنا حتى اشترى لي زوجي محمد غسالة أحدث، ماركة «وتار ديجيتال»، مما زاد من غيرتها مني ... هكذا نحن النساء.

يرغب الأخ الكبير حسن بمعاودة المشاركة في «الحكاية»، بحدث قلب حياتنا في «البلدة».

بعد وفاة والدنا، أهملنا العناية بالحقل والكرم، رغم تذمر والدتنا المستمر. خليل يعمل في ورشته طوال النهار، وأنا ومحمد موظفان في الدولة، وليس لدينا وقت للزراعة، سوى أيام العطل

والإجازات. يكفي فلاحة الكرم في الخريف، وتقليم شجيراته في الربيع، فنحصل على الموسم. أما الحقل، فيحتاج إلى عمل مستمر. إلى جانب محصول الحبوب، ينبغي زراعته بالخضار والبقوليات، على مدار العام... إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم على «داريا».

أختنا الكبرى وفاء ترغب أن تقاطعني قليلًا، لديها هنا جزء مهم من «الحكاية». أعاود الحديث بعدها.

أنا وفاء. أزور والدتي، في هذا اليوم المشؤوم. أشرب القهوة معها ومع سمية، تحت العريشة، في باحة الدار. يشع وجه والدتي دائمًا بالصفاء والنضرة، كأن العمر لا يمر عليها. لا تعرف المرض، ولا الأوجاع الجسدية. اكتسبت قوة سحرية من أرواح النباتات المحيطة بها، تجعل روحها مزهرة باستمرار. تتحدث معها طوال الوقت، وتتبادل الطاقة معها.

يقع فنجان القهوة فجأة من يد والدتي، وترتمي على الأرض، تتلوى من ألم غريب، دون سبب ظاهر. تهذي بهلوسات، مرددة «أشتعلُ بالنار، حريق في روحي، والدكم يحترق، ويستنجد بنا». يتصاعد دخان كثيف من ثيابها، مع أنه لا نار حولنا. يصيبنا الذعر، أنا وسمية، دون أن نعرف بما نتصرف. لم نشاهد والدتنا في مثل هذه الحالة أبدًا. سرعان ما يتحول الدخان إلى نار في ثيابها. نصرخ مذعورات، فتُسرع إلينا زوجا محمد وخليل، ويتراكض الجيران، قافزين من فوق سور الدار. نشاهد جميعًا، كيف تشتعل النيران في جسدها. قام جارنا بإطفائها سريعًا ببطانية صوفية سميكة. نحملها إلى الفراش، ننزع عنها الثياب المحترقة. جسدها مليء بحروق شديدة، إلا أنها لم تفقد الوعي، ولا

تبدي مظاهر ألم. تردد فقط «أنقذوا الكرم والحقل، أنقذوا الكروم والحقول».

الآن، يكمل لكم أخي الأكبر حسن، ماذا حدث في هذا اليوم.

أنا حسن، كان ينبغي أن أخبركم مسبقًا أن «الغزاة الغرباء»، القادمين من قرى الساحل البعيدة، هبطوا علينا في ليلة ظلماء، في لباس عسكر، واستولوا على الأراضي الشمالية لبلدتي «داريا» و«المعضمية»، بدواع أمنية. سرعان ما بنوا عليها «مستوطناتهم» العسكرية، وزحفوا بها متوسعين على التلال المشرفة على «دمشق». يعيشون فيها مع عائلاتهم مرتزقة عسكرة، ليس لديهم حرفة أو مهنة، إلا السلب النهب في البلاد، هو ما توارثوه عائليًا، جيلًا بعد جيل. توسعوا على أراضينا بمطار حوامات عسكري، ومواقع قتالية، لحماية قصر «الجنرال السفاح»، القائم على تلة مشرفة على أراضينا. كافأهم بحق الاستيلاء على أراضينا، بقوة السلاح، وافتتاح علني لـ «أسواق التهريب» فيها، المحمية بقوة مافياتهم الطائفية الرسمية، المرتبطة بـ «القصر الجمهوري». يبيعون فيها كل ممنوع ومفتقد في البلاد، بدءًا من المشروبات الكحولية، ومرورًا بالفياغرا والمواد الإباحية، وانتهاء بالمخدرات بأنواعها. يقضمون الحقول والكروم شيئًا فشيئًا، ويقتلعون الأشجار، وينشرون فيها بيوت صفيحهم خرابًا.

ذات صيف حار، ينتشر من «مستوطنات الغزاة العسكرية» حريق عظيم، يزحف نحو أراضينا؛ تشتعل البساتين، والكروم، والحقول، والبيادر، والمزارع، والدور، تشتعل معها الأرواح. تفاجئنا النيرانُ بلهب عظيم يسد الآفاق، نتراكض لوقف زحفها، بوسائلنا

البدائية؛ بالمعاول والمجارف والأظافر، بانتظار وصول سيارتيّ إطفاء «البلدية». محرك السيارة الأولى معطل منذ زمن بعيد، وتصليحه ينتظر الاعتمادات المالية من العاصمة، وسائق الثانية في إجازة. عندما يحركها أحد المتطوعين، يتم اكتشاف أن خزانها فارغ من المياه، لأنه مثقوب. نطلب سيارات إطفاء من العاصمة، يأتينا الجواب بأنها مشغولة بإطفاء حرائق، اندلعت في أماكن أخرى. يبدو أن الحرائق أصبحت شاملة، في البلاد كلها، زحفت من «مستوطنات العسكر الغرباء»، أينما وجدت في البلاد. بصعوبة استطعنا إيقاف زحف الحرائق عند حدود البيوت، لكن بعد أن احترق الأخضر واليابس.

والدتنا هي الأكثر حزنًا بيننا، نسيت حروق جسدها، لكن روحها بقيت ملتهبة بعمق. تردد «عاشت عائلاتنا بكرامة من الخيرات الوفيرة لهذه الأراضي، احذروا الغرباء، قدموا ينهبون بلادنا. أينما يحلون، يزرعون الخراب والدمار».

تتمتم بنبوءة، وهي مغمضة العينين «الحريق علامة شؤم، ستأتينا أيام سود، ستحترق فيها «داريا» وتحترق معها أرواحنا».

أقيم في دمشق، لكن الأحداث تتسارع في البلاد، منذ حادث الحريق العظيم. تشتعل «الانتفاضة السلمية»، وقد أحكمت «جيوش المستوطنين» الحصار على «البلدات»، ومنها «داريا».

يمر وقت، لم يعد يجرؤ به نشطاء «الانتفاضة» على الخروج من «داريا»، خوفًا من اعتقالهم على «الحواجز الأمنية». يُعلن الأهالي حربًا شعواء على «المخبرين المحليين». يتم تعليق قوائم بأسمائهم أمام المساجد، وفي الأسواق، والشوارع، من أجل مقاطعتهم

اجتماعيًا. عندما أخذ المعتقلون يعودون بسببهم جثثًا إلى أهاليهم، وباشتراط دفنهم مباشرة، دون أي مظاهر عزاء، تتعسكر «الانتفاضة»، وتبدأ بتصفية «المخبرين». منذ ذلك الوقت، لم تعد تجرؤ الدوريات الأمنية على الدخول إلى «داريا»، لأن ذلك كان يعني اختفاءها على يد «المنتفضين المسلحين».

أترك الحديث الآن لمحمد وخليل، اللذين يعيشان الأيام الصعبة للحصار. هما الأقدر على رواية تفاصيل الرعب.

أنا محمد، أتبادل إكمال «الحكاية» مع خليل. نروي ما يحدث معنا في أيام «الانتفاضة».

في ليلة من شهر تشرين الثاني، يهطل المطر بغزارة، ويتسلل البرد بقسوة، مع تباشير شتاء مبكر. يبدأ قصف شديد، من قبل «جيوش المستوطنين»، على أطراف المنطقة الشرقية من «داريا» التي يقع فيها حينا. أعرف أن مثل هذا القصف هو مقدمة لاجتياحها. الكهرباء مقطوعة، والعتمة حالكة، والشوارع فارغة. تلتم عائلتانا، أنا وخليل، ومعنا والدتنا وأختنا سمية، حول مدفأة في منزلي. من المُفترض أن يكون منزلي أكثر أمانًا، بوجود بناء المدرسة الابتدائية الطابقية، المتاخمة له مباشرة. نجلس صامتين، والقلق يخيم علينا. فقط وجه والدتي تحول إلى حجر، لا ينطق. القصف شديدٌ، بحيث أن ابنتي الصغيرة ريما، النائمة قربنا على فراش أرضي، تتقافز مرتعدة، كلما سقطت قذيفة قريبة. لم يكن أمامي إلا أن أغلق أذنيها بكفيّ.

بين الفينة والأخرى، تتعالى أصوات زخات رصاص، من أماكن مختلفة، تقترب أكثر فأكثر من حيّنا. لن يمر وقت طويل حتى

نسمع صرير جنازير دبابات ولغط جنود يقتحمونه. أسمع صوت تكسير زجاج سيارتي، المركونة في الجهة الخلفية من البيت. أخرج لأرى ما يحدث، رغم محاولات والدتي منعي من ذلك. كنت قد بعت سيارتي الحديثة، خوفاً من سرقتها في فوضى الأحداث. اشتريت بدلًا منها سيارة قديمة، لا تلفت الانتباه. تتسع لركاب أكثر، في حال الهروب مع العائلة بأكملها، في حالات الطوارئ.

ما إن أخرج من البيت، حتى تُوجه إليّ أضواء مصابيح كاشفة، من أفراد «جيوش المستوطنين»؛ «الحرس الجمهوري»، و«الفرقة الرابعة». ينتشرون بكثافة حوله، وبنادقهم موجهة إليّ. يصرخ بي صوت بلهجة ساحلية غليظة «قف يا حيوان، ماذا تفعل هنا؟».

أرى جندييّن، يستطلعان ماذا تحوي السيارة، بعد تحطيم زجاجها. يقف إلى جانبهما ضابط برتبة مقدم؛ ضخم بقدر بغلنا القديم، مربوع الجسد، له وجه مسخ وحشي. هو من يصرخ بي.

أرد بقلق «يا معلمنا هذه سيارتي، أريد أن أسأل لماذا تحطمو نها ؟ » .

«لا، هذه سيارة إرهابيين، وفيها أسلحة».

«بالعكس، هذه سيارة الإدارة، التي أعمل فيها. تستطيعون رؤية لوحتها الخضراء الرسمية».

يقترب رقيب مني، يقارن بطاقتي الشخصية مع لائحة أسماء يحملها، لم يجد اسم عائلتي فيها. تنفست الصعداء، الاعتقالات والتصفيات تتم الآن على اسم العائلة. لحسن الحظ، يتلثم خليل في المظاهرات، فلم يتعرف عليه «المخبرون».

بدلًا من تركي أعود للمنزل، يقول المقدم لي «أمش أمامنا يا حيوان، ستدلنا على منزل عائلة «الخالد» الإرهابية».

يدفعني جنديان جلفان أمامهما بسبطانة بندقيتهما.

تورطت بخروجي من البيت. أقول «يا سيدي، حينا كبير، لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. أنا موظف رسمي بدوامين، أغيب طوال النهار».

يلطمني المقدم بقبضة قاسية على وجهي. ينزف الدم من شفتي، يختلط بزخات المطر. يقول «اخرس، يا جحش، كلكم إرهابيون هنا».

أكتشف أني أسير في غابة من «جنود المستوطنات» المموهين، المنتشرين حول دبابتين. لا أعرف بماذا أتصرف، يصيب عقلي الشلل.

نتوقف أمام محل نجارة لعائلة «الخالد»، تعرّف عليه الجنود من لافتته، على أضواء مصابيحهم. يكسرون أغلاقه بمقرض حديدي. ولما لم يجدوا فيه أحدًا، يرمون في داخله كتلة ناسفة غريبة، تفجره بصوت شبه مكتوم. تشتعل الأخشاب المكدسة فيه بنيران لاهبة متراقصة، ما تلبث أن تُضيء الحارة، تجعل ليلها نهارًا. ثم يحطم الجنود باب المنزل المجاور، يدخلون، يعودون بالرجلين الوحيدين الموجودين في البيت، فيما عويل نساء يتصاعد وراءهما.

أعرف جيدًا، هذين الأخوين من عائلة «الخالد»، في الأربعينيات من عمرهما، رجلان بسيطان، يعملان في محل النجارة. ألقي عليهما التحية عند مروري أمامه، فيدعواني إلى شرب الشاي الثقيل، ويلقيان طرفة، أضحك لها من أعماق القلب.

يجر الجنود الأخوين بوحشية، فيما النيران المشتعلة في محل النجارة تنير وجهيهما، المغطين بحبات المطر. يلف الأخ الكبير هدوء غريب، كأنه مستسلم لقدره، بتحد صامت. ما إن يمرَّ أمامي، حتى يلقي عليّ نظرة خاطفة، كأنها تقول «أعرف قدري، لن أروي لك بعد الآن طرفة مضحكة».

يصرخ الأخ الثاني برجاء، محاولًا التشبث بأي شيء في طريقه؛ بجدار أو شجرة «ارجوكم، لا علاقة لنا بالمسلحين».

يمضي كل شيء بعد ذلك بطريقة سريعة. تتعطل حواسي عن الإدراك، وتلفني غمامة من العماء، وأنا أشاهد الجنود يوقفون الأخوين أمام جدار، متوقعًا أن يتم التحقيق معهما ببضعة أسئلة. لكني أفاجأ بهم يبتعدون عنهما، ويطلقون رشات رصاص عليهما من بنادقهم، بكل بساطة، دون أن يرف لهم جفن. يسقط الأخوان أمامي مضرجين بالدماء، تحت بالمطر، الذي يوسع دوائر الدماء، دون أن تزول عن عينيهما علائم الاندهاش، مما حدث لهما. تتم العملية بلحظات عابرة، لم تكن تكفي وجهيهما للتحول من الدهشة إلى رعب مواجهة الموت. لكن الرعب يجد طريقه إلى وجهي، الذي يمتقع، ويرافقه جفاف غريب في فمي، بينما لا تستطيع عيناي مفارقة الجثتين، لقد كانتا تنبضان بالحياة قبل ثوانٍ، ولم أستطع فعل شيء لهما. يصيبني مس، وأنا أتخيل أن الأخوين ينهضان، ويجلسان على الأرض يسكبان الشاي الثقيل في كؤوس من إبريق عتيق، ويناديانى «يا محمد، اترك الجنود، وتعال اشرب معنا شايًا ساخنًا، مع سيجارة تدخنها على الماشي. نعرف أنك مشغول دائمًا في الوظيفة، تمتع بالحياة يا محمد».

لكن الكؤوس الصغيرة ليست مملوءة شايًا. ما إن يحمل كل منهما كأسه حتى يطفح دمًا، ينسكب على ملابسه.

تخرج والدتي من البيت على صوت إطلاق الرصاص، ألمح أخي خليلًا، يقف مترقبًا وراء الباب. يظنان أن الجنود أطلقوا الرصاص عليّ. ما إن تشاهدني والدتي حتى تستعطف الجنود بصوت رجاء، كي يتركوني. إلا أن أحد الجنود يدفعها بشدة ببندقيته في صدرها، فتقع أرضًا تتلوى. أنحني لأرفعها، فيقبض على قميصي جندي آخر، ويدفعني أمامه بعنف. تعود والدتي شبه زاحفة إلى البيت، وهي تتألم، دون أن يجرؤ خليل على سحبها، وهو ينظر إلى الجثتين من شق الباب.

أشعرُ بالموت يحوم حولي، أصبحتُ الشاهد على حادثة حرق محل النجارة، وعملية الإعدام السريع لشخصين بريئين، لماذا لا أكون الثالث. لكن بدلًا من التخلص مني مباشرة، يدفعني المقدم أمامه بعنف، وهو يقول «هيا، يا حيوان، ستدلنا على جميع بيوت عائلة «الخالد» في الحارة».

في هذه اللحظات، تحضر سيارة عسكرية صغيرة، تتوقف في رأس الحارة، أرى فيها ضابطًا برتبة عقيد. لن أنسى سحنته وملامحه على ضوء النيران المشتعلة. يركض المقدم إليه مع عدد من الجنود، فأستغل الفرصة، وأركض وراءهم، وأنا أصرخ « يا معلمنا، يا معلمنا». لم ينتبه الجنود إلا وكنت أمام العقيد، إذ كان علي أن أغامر، بعد شعوري بأن حياتي ستنتهي بعد دقائق، على يد المقدم الجلف. أقول للعقيد «يا معلمنا، أنا موظف في الدولة، وأشكركم على إنقاذنا من الإرهابيين المسلحين».

يفاجأ العقيد بي، يسأل المقدم «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ اتركه ينقلع إلى بيته».

ينظر المقدم إليّ بحقد شديد، يصرخ بي «انقلع يا حيوان من هنا». وينشغل بتلقي التعليمات.

أسرع بالعودة إلى البيت، غير مُصدق أني نجوت من الموت. في أثناء ذلك، ألمح جنديين يلهوان بحرق دراجة نارية، وجداها في مدخل أحد البيوت. يقف خليل وراء الباب، يسحبني بعنف إلى الداخل، وهو يردد هامسًا بغضب «مجنون، كدت تفقد حياتك من أجل سيارتك».

يبدو أن تعليمات العقيد للمقدم متعلقة بإقامة حاجز عسكري ثابت، قرب حينا. ألمح من طرف النافذة، على ضوء النيران، شاحنة عسكرية تحمل أكياس رمل. سرعان ما يرتفع سد عالٍ، في طرف الشارع الرئيسي، يتمترس الجنود وراءه، وتربض إلى جانبهم دبابتان. يستقر قناص، فوق سطح المدرسة، المطلة على بيتنا، أكتشفه من المنظار الليلي، المشع بالأحمر، والمثبت على بندقيته، فأبتعد مسرعًا عن النافذة. نحتاج إلى خبز من دار والدتي لإطعام الأولاد، نضطر، أنا وخليل، أن نزحف في العتمة، بين شجيرات الورد في الحديقة من أجل الوصول إليه.

مع انبلاج الفجر، تشتعل نيران جهنم حولنا؛ تعلو موسيقى الرصاص والانفجارات، مع أضواء تتلألأ في الفضاءات، تختلط بأصوات مقاتلين يصرخون «الله أكبر». عرفتُ أن كتائب «الجيش الحر» تقوم بهجوم مفاجئ على المنطقة، بما فيها على الحاجز

العسكري الجديد، في رأس الشارع. تتراقص طلقات الرصاص على جدران البيوت. تقترب الاشتباكات من بيتنا، ثم حول حديقتنا. ليس لنا إلا أن نتكور في الحمام، الأكثر أمانًا، بانتظار انتهاء المعركة. يبكي الاطفال بصمت، ويخبئون رؤوسهم في أحضاننا.

تتوقف الاشتباكات. نخرج من البيت، أنا وأخي، عندما نتأكد أن عناصر «الجيش الحر» قد سيطروا على الحاجز، في رأس الشارع. يتبين أنهم قتلوا جميع الجنود فيه، واستولوا على الدبابتين. نشاهدهم يجمعون جثث الجنود، من أجل دفنها. ألمح بينها جثة الضابط المقدم الحقير، الذي نجوت بأعجوبة منه. وستقوم «تنسيقيات داريا» لاحقًا بنشر صور جثتي كل من المقدم الجلف والعقيد الأشقر على وسائل التواصل الاجتماعي الالكترونية. لكن مقابل الجنود القتلى، تتكشف في الحي جثث ستين من الأهالي، تم إعدامها ميدانيًا في الليل، كما حدث للأخوين النجارين، ماتزال مرمية في الشوارع والحارات. نشارك أنا وخليل والأهالي بدفن الجثث، وعندما أصل إلى جثتي النجارين، لا تغادر الدموع عينيّ، أشعر بذنب ما.

يكمل خليل ما يحدث تاليًا.

أنا خليل. أعرف بخبرتي العسكرية، وبعداوة «المستوطنين الغرباء» لنا أن جيوشهم لن تقبل ضرب حواجزهم حول «داريا» بهذه الشدة، ومقتل العديد من عناصرهم. لذلك، يتوالى القصف الشديد، على «البلدة» بكاملها، كمقدمة لاجتياحها من جديد.

في الصباح الباكر، يهدأ القصف. نتجمع مع بعض أهالي الحيّ، أنا ومحمد. نلغط بأسئلة مبهمة دون أجوبة، وظلال ثُقيلة تخيم

على وجوهنا المنهكة، القلقة والمتشنجة، التي لم تنم طوال الليل، ومتلهفة لأي خبر عما يحدث حولنا. فجأة، تمر من قربنا دراجة نارية، يمتطيها مُسلحان اثنان من «المنتفضين». نستوقفهما لاستطلاع الأخبار، يعلن أحدهما بعجلة «هجمت البارحة ليلًا، من جديد، مجموعة كبيرة من «جيوش المستوطنين»، بدعم من الدبابات، على طرف «البلدة»، فتصدى لهم شبابنا».

نسأل، ونحن نستمهلهما «ماذا كانت النتائج؟».

يجيبنا مبتسمًا «انسحبوا مؤقتًا. لكن تم تدمير دبابتين، في حين انشقت دبابة ثالثة، بسائقها الحلبي، وانضم إلينا».

ينطلقان مسرعين. يريد محمد أن يكمل الحكاية هنا.

أنا محمد، دائمًا أرى خليلًا متهورًا، منذ خروجه في المظاهرات، ويروي «الحكاية» بحماسة انفعالية. المهم، ما إن يمضِ المسلحان على دراجتهما، حتى نسمع ضجيج آلية مجنزرة، ينبعث من طرف الشارع الرئيسي، الذي يقود إلى حارتنا. يصيبنا الهلع، نتراكض فارين، إذ نلمح من بعيد دبابة، تتقدم نحونا مسرعة، بزئير مخيف، فيما الدخان والغبار يتصاعدان حولها. إلا أننا نتوقف، عندما نلمح علم «المنتفضين» الأخضر، يلوّح به أحد الشباب فوقها. عرفنا أنها الدبابة، التي انشق سائقها عن «جيش المستوطنين»، وانضم بها إلى «الجيش الحر» في «داريا».

لا نشاهد من الدبابة سوى مدفعها الطويل، الذي يتقدم نحونا، وجنازيرها، التي تصر على أسفلت الشارع، إذ تغطى هيكلها بعدد كبير من «المنتفضين». يرتدون ملابس مدنية، ويلفون رؤوسهم بكوفيات. تتراقص

البنادق في أيديهم، يطلقون منها الرصاص في الهواء، وهم يهزجون بهتافات «يا داريا نحن معاك للموت». تزداد حماستهم بمقدار اقترابهم منا، بينما نتراكض نحن لملاقاتهم بالهتافات نفسها، والنساء تزغرد.

بالكاد يَرى رأس سائق الدبابة الصغير طريق سيره، ليس بسبب ازدحام عناصر «الجيش الحر» فوقه، بل بسبب تراكض الأهالي المتحمسين نحوه. لم يلاحظ، وحماسته تشتد هو أيضًا، وجود هوة كبيرة في الطريق، لم تصلحها البلدية منذ زمن طويل. نحن نعرفها، نلتف بسياراتنا من حولها، ونتجاوزها. سرعان ما يهبط فيها بعنف. تهتز الدبابة بشدة، ويصطدم رأس السائق في هذه اللحظة بطرف فوهة كرسيه، ويفقد السيطرة عليها. يتطاير بعض من يعتليها، ويتبعثرون أرضًا. لكن الدبابة تتابع السير وحدها، وهي تزمجر بشدة. تخرج من الانهدام، وتنحرف عن الطريق. تتحدى بجنازيرها كل ما يعيق تقدمها، فتطحنه، وتتجاوزه.

تمر الأحداث بعد ذلك بلمحة خاطفة، كشريط سينمائي، وسط مظاهر الصدمة، فالذهول، ثم الرعب والفرار. تصدمُ الدبابة واجهة محل مفروشات، فتطحنه بأثاثه المعروض. وبما أن الصدمة كانت جانبية، تستمر الدبابة في اندفاعها لتطحن واجهة أربعة محال أخرى، سرعان ما تتداعى سقوفها، وتهبط فوقها. وتواصل الدبابة اندفاعها، إلى مدخل بناية. هناك، تصطدم بدعامة إسمنتية عريضة ضخمة، توقفها، وينطفئ محركها بحشرجة شديدة، وتهمد في مكانها.

أدع أخي خليلًا يكمل «الحكاية» هنا، فقد قضى خدمته العسكرية الإلزامية في الجيش سائق دبابة.

أنا خليل. تتوقف الدبابة أخيرًا. غاب سائقها عن الوعي، في أثناء الصدمة. يرتفع أنين المصابين، جراء السقوط عن ظهر الدبابة، وانهيارات المحال التجارية، ويتراكض الناجون منا لإسعافهم.

لم يمض وقت طويل حتى تحضر سيارات إسعاف من مشفى «داريا»، يرافقها عناصر من «الجيش الحر»، لنقل المصابين. تنتشر الفوضى، الجميع يصدر التعليمات والأوامر بصراخ، فيما عويل النسوة يختلط بأنين الجرحى. يصبح المشهد أكثر غرابة، عندما يحضر بعض عناصر «الجيش الحر» بسيارات المرسيدس الرسمية السوداء الفخمة، الخاصة برئاسة مجلس الوزراء، وقد مدوا بنادقهم من نوافذها. انتشرت بأناقتها وفخامتها وسط فوضى ازدحام الأهالي، المتناثرين حول الجرحى، بحيث ضاعت بينهم. كانت هذه السيارات الرسمية من موكب رئيس الوزراء المنشق عن «النظام»، التي تركها في «البلدة»، في أثناء مروره فيها، خلال رحلة هروبه السري إلى الأردن، بمعونة «الجيش الحر».

بما أني أديت خدمتي العسكرية سابقًا سائق دبابة، أستطلع الوضع في الدبابة المعطلة. يروعني أنها مذخرة بالكامل، وأفكر بما كان سيحدث، لو انفجرت في هذا الجمع من الأهالي. أفشل في تشغيل المحرك، فالبطاريات أصبحت فارغة. تحضر جرافة، وأعيدُ شحن بطاريات الدبابة منها. يشتغل محركها، لكنها لا تقلع من مكانها، إذ يتبين أن أحد الجنزيرين قد انقطع نتيجة الاصطدام بالبناء. تُستقدم رافعة شوكية ضخمة، تابعة للبلدية، تنتشلها من بين أنقاض المحلات، وتعيدها إلى جانب الطريق، بانتظار تصليحها من قبل إحدى ورشات

ميكانيك الآليات. يطلب عندئذ عناصر «الجيش الحر» من الأهالي تزويدهم بأغطية من أجل تمويهها عن رصد الطيران، بخاصة مدفعها الطويل، الذي يفضح وجودها. يجلب الأهالي حرامات فاقعة الألوان، حمراء وخضراء وصفراء، المفضلة في غرف نومنا، وهي ما تكشف الدبابة أكثر مما تخفيها. يريدون ببساطة المساعدة بأي شيء. لكن قبل تغطيتها، يلتقط المقاتلون والأهالي الصور التذكارية معها، بهواتفهم المحمولة، كما لو أنهم في زيارة إلى «متحف دمشق الحربي»... دون أن يدركوا بعد خطورة الجحيم القادم.

أنا محمد. أكمل «الحكاية» هنا. أنظر إلى ما يحدث حولي، متوجسًا الخطر. لا تمضي نصف ساعة، إلا وتحلق فوق حينا ثلاث حوامات، انطلقت من «مطار المزة العسكري»، تبحث عن الدبابة المفقودة. وبما أن عناصر «الجيش الحر»، المتشكل حديثًا بمعظمهم من شباب مدنيين، ليس لديهم خبرات في معظم القضايا العسكرية، من بينها التمويه، فقد اكتشفت الحوامات موقع الدبابة سريعًا. يطلب العناصر من الأهالي الاختباء في منازلهم، ويطلقون النار عليها من بنادقهم. في لحظات، يشتعل جحيم مريع من حولنا، إذ أخذت صواريخ الحوامات تتساقط عشوائيًا علينا، فيما تنصب زخات ماطرة من رشاشاتها تلاحقنا.

نجري، أنا وخليل، بعائلتينا ووالدتنا وأختنا، إلى بيتي، ننحشر في الحمام الضيق. ألمح من طرف نافذته الصغيرة أغصان شجيرات الرمان تمضي مع امتداد تموجات الارتجاجات، مع انفجار كل صاروخ حولنا. يهطل فوق السطح مطر غزير من الرصاص. لا تهدأ الحوامات

فوقنا، ما إن تلق مجموعة منها قذائفها، وتمضي، حتى تحضر موجة تالية منها، فيما لا ينفك مقاتلو «الجيش الحر» عن إطلاق الرصاص عليها.

فجأة يسقط صاروخ في حديقة البيت، يتطاير الحصى الناعم والتراب. يرشق رذاذه القاسي الجدران، ويُحطم زجاج النوافذ، تسقط أواني المطبخ أرضًا بضجيج، يعلو صراخ الأطفال. تشتعل شجرة التوت، تعلو منها غمامة دخان كثيفة. أقول لخليل «سقط هذا الصاروخ في الحديقة، سيلحقه التالي إلى البيت فوقنا، لنغادر بسرعة من الباب الخلفي للحديقة، حيث أوقفت سيارتي».

نحمل الأولاد، ونتراكض بهم نحو السيارة، تلحقنا النسوة. نحشو أنفسنا بها عشوائيًا، وأنطلق بسرعة مجنونة، بين الانفجارات وزخات الرصاص، باتجاه مركز «داريا».

تصرخ ابنتي حنين، المرتمية في حضن والدتها «بابا، نسيت «مارك» في البيت».

أي «مارك» يا بنتي والموت يلاحقنا! لا أصدق أننا خرجنا من مرمى النيران. على كل الأحوال، لمحت الببغاء، ونحن نجري، ميتًا. لم يحتمل شدة انفجارات القذائف حوله.

يشتعل جنون القصف على «البلدة»، من «جبل قاسيون»، وتلال «المعضمية»، فيما لا تنفك الحوامات عن الإقلاع من مطار «المزة العسكري»، تلقي بصواريخها عليها. «البلدة» شبه مهجورة، والشوارع فارغة، إلا من مقاتلي «الجيش الحر». ينتشرون بأعداد كبيرة، ينشؤون الحواجز، ويتمترسون خلفها.

في هذه الأثناء، أتلقى اتصالًا، على الهاتف المحمول، من أخي الكبير حسن، الموجود في دمشق. يقول بلهجة سريعة منفعلة، يملؤها القلق «العائلات تغادر «داريا»، ينبغي عليكم اللحاق بهم سريعًا. ستتحول «البلدة» إلى ساحة حرب وحشية».

فجأة، يقفز خليل من السيارة، فتعلو الدهشة وجهي. أصرخ به «أين تذهب، يا مجنون؟».

يقول مودعًا «زوجي أمانة في عنقك».

يذوب بين عناصر «الجيش الحر». تصرخ النساء مولولات، وهن ينادينه، ما عدا والدتي، يلوح طيف ابتسامة على وجهها الحجري.

أصبحت مسؤولًا وحدي عن أربع نساء، وثلاثة أطفال. «داريا» محاصرة بالحواجز الأمنية لـ «جيوش المستوطنين»، التي لن تسمح لنا بالخروج. يمكن أن تعتقل أي شخص دون أي سبب، سوى أنه من «البلدة»، وتصفيه. أتصل بأحد المعارف من مسؤولي «البلدية»، المتعاون معهم. أطلب منه إخراجي من «البلدة».

«كم ستدفع من المال مقابل إخراجك؟».

«اطلب المبلغ الذي ترغب به، لكن دعني أخرج بالنساء والأطفال».

وحدث الخروج النهائي من بيتنا، ومن ذكرياتنا، من «داريا العنب».

الفصل الثاني

داريا الثورة

أنا زوج محمد. حزينة الآن باستمرار، أصبحت «الحكاية» قاسية ومؤلمة. مع ذلك ينبغي روايتها حتى النهاية.

نجونا من الموت في «داريا»، إنما نعيش ذل التهجير في بلدة مجاورة، تحت سلطة «الميليشيات الطائفية وشبيحتهم»، في موت يوميّ. يخسر محمد وظيفته الرسمية في «داريا»، ويشتغل «سائقًا عموميًا»، بعد أن حول سيارتنا إلى الخدمة العامة، وأنا في «مخزن بيع ملابس». بصعوبة، وجدنا غرفتين وصالون، ندفع إيجارهما عاليًا. نقيم فيهما، أنا ومحمد وأولادي الثلاثة، وزوج خليل، ووالدة محمد، وأخته سمية. وينضم إلينا لفترة ابنا الأخت سميرة، ماهر وطارق، بسبب خلافات مع والدهما. خرجنا بملابسنا فقط، على أمل العودة قريبًا. اختفت مدخراتنا سريعًا، في شراء بعض الأثاث وملابس للأولاد.

يسألني أولادي «أمي، متى سنرجع إلى بيتنا؟».

تزورني الدمعةُ. الشجرة الخضراء أضحت حطبًا يابسًا. لا جواب.

أنا محمد. أكمل «الحكاية»، التي أصبحت حزينة. منذ أن

غادرنا «البلدة»، تلاشى الدفء والأمان من حياتنا. يرافقني شعور دائم أني شجرة مقتلعة بعنف من غابة عذراء، مرمية الآن في صحراء وحشية، مترامية الأبعاد. آلامي كبيرة مع فقدان شباب العائلة والأصدقاء، فهم إما في المعتقلات، يموتون جميعهم شبابًا ب «أزمات قلبية»، حسب التقارير الرسمية، أو في صفوف مقاتلي «الجيش الحر» في «داريا»، وتتوارد أخبار موتهم بالتتالي، أو مهاجرين إلى المنافي البعيدة، ويختفون. أما عجائز الجسد والروح من أمثالي، فهم مشردون هنا، في بلدات غريبة عن موئل الروح، «صامتون». هل لنا شيءٌ-نفعله سوى «الصمت»، والأشباح تترصد خطواتنا، وتلاحق أنفاسنا. تهمة اعتقالنا جاهزة؛ الانتماء إلى «البلدات» المتمردة.

خرجنا من أجل كرامتنا ذات «ربيع»، فإذا بالفصول جميعها تتحول في حياتنا إلى «خريف». أدفع معظم أجري مقابل منزل صغير، ولا أجد وقودًا لتدفئة الأولاد في الشتاء. أستلم معونات، من أناس يتصدقون بها علينا، نحن من كنا نعيش في بيوتنا بكرامة، ونمد يد العون للمحتاجين.

أنا سمية. أكمل «الحكاية» هنا، محمد يختنق بالألم. منذ عامين تنتظر والدتنا العودة إلى «دارنا». أقول لها «أيام صعبة وتزول، يا والدتي، شهران أو ثلاثة، ونعود، بعد أن تهدأ حدة المعارك».

تتعب والدتنا، تردد «منذ سبعين عامًا، لم أغادر «داريا». لم أعد أستطيع الانتظار، والدكم يناديني».

يتلقى محمد مرة أجرًا جيدًا. يشتري معلاق خاروف وبيضاته، من عند لحام الحارة، ويشويها عند الفران على عجينة. نتناولها على

العشاء، مسرورين بالوليمة الباذخة المفاجئة، التي لم نتذوق مثلها منذ بداية التهجير. لا أعرف لماذا ترتسم على وجه والدتنا، طوال الوقت، طيف ابتسامة حزينة، دون أن تقول شيئًا. تمضي إلى فراشها، ألحقها بعد نصف ساعة، فنحن ننام معًا. أستغرب صفاء وجهها، لا تفارقه البسمة، التي رافقتنا في العشاء. لكنها لا تتنفس. أنادي محمد بصوت مختنق «سافرت والدتنا!».

يفك محمد العقد العقيقي من رقبتها، يعلقه برقبتي «أُعنى به، هو هدية الوالد لها، من أيام الخير. أنت الأقرب إلى قلبها».

أنا محمد. لم أبكِ يوم وفاة والدي، فقد ارتاح من آلام المرض، إنما أبكي موت والدتي، مضت دون أي مرض أو آلام. كانت تحب الحياة؛ تجمع القيشاني، تطرز الرسومات القماشية، ترتدي ملابس جميلة، تتحين أطايب الطعام، تُسر بأولادنا. تم انتزاعها عنوة من أُلفة سبعين عامًا في بيتها. ماتت، وفي قلبها حنين، تنتظر العودة إليه في كل لحظة.

كانت وصيتها «ادفنوني في داريا». كيف ندفنها هناك، وهي محاصرة، لا أحد يدخلها أو يخرج منها؟

أنا حزين يا والدتي، لأنني لن أستطيع تحقيق وصيتك.

أحصلُ على «موافقة أمنية» لدفنها، في مقبرة «البلدة»، التي نقيم فيها الآن. أضع التابوت في السيارة لنقلها إلى المقبرة، أنتظر طويلًا قدوم العقيد اللئيم، المسؤول عن «الحاجز الأمني»، قرب بيتنا، للكشف على الجثة. عند معرفة أن المتوفاة هي من «داريا»، يحضر عقيدان معًا، بدلًا من واحد، ويتأكدان أننا لا ندفن «إرهابيين»، ولا «يتم

تهريب أسلحة مع الجثة». طوال سبعين عامًا، لم ينكشف جسد والدتي إلا لوالدنا وبناتها. لم يبق للعقيدين سوى أن يفكوا عنها الكفن، كي يتأكدوا أنها لم تصب بطلق ناري، في «أثناء مشاركتها بالهجوم على حاجز أمني». بعد التفتيش الدقيق، يسمحان فقط لأربعة رجال من العائلة بدفن الجثة، على أن يتم ذلك خلال عشر دقائق، ضمن حالة التوتر الأمني، التي تعيشها «البلدة». في المقبرة، ونحن ننزل التابوت من السيارة، أشعر بخفته. أفتحه، لا أجد الجثة فيه. يقول أخي حسن «لا داعيَ للدفن، عادت والدتنا كرم عنب في داريا، إلى جانب حقل القمح».

أترك الآن أختي الكبرى وفاء، التي تحمل نبل أخلاق والدتنا، تكمل «الحكاية» هنا.

أنا وفاء. أهرب، أنا وزوجي الصيدلاني، من «داريا»، يوم اجتياحها، نتيجة القصف الشديد. خرجنا بملابسنا، وبعض النقود. أستأجرنا غرفة صغيرة في «بلدة مجاورة». زوجي الستيني يؤكد لي «نحن منتصرون، حطمنا تماثيل «الديكتاتور السفاح»، ليس فقط في الشوارع، وإنما في رؤوسنا أيضًا، حطمنا الخوف. سنعود قريبًا إلى بيتنا، وصيدليتنا».

أبتسم بمرارة، وأنا أسمع تأكيدات زوجي. أحدثكم بما حدث لنا، قبل الخروج.

تم اعتقال ابني الصغير عروة، في الشهر الثاني من «الانتفاضة». حدث هذا صباحًا على أحد «الحواجز الأمنية»، عند مدخل «داريا»، في أثناء ذهابه إلى محاضراته في كلية الهندسة الميكانيكية بدمشق. تم ذلك بناء على وشاية «مُخبر محلي» ملثم، متخف بين عناصر الحاجز. كان

عروة قد أمضى ليلة طويلة في رمي المنشورات، أمام مداخل المنازل والمحال التجارية، هو ومجموعة من الشباب. علمنا باعتقاله من أحد أصدقائه، الذي لم يتعرف إليه «المخبر». كنت أخاف دائمًا على عروة، وأخيه الأكبر مصعب، عندما يخرجان في «المظاهرات»، فهما الابنان الوحيدان لدينا، إنما دون ردعهما عن المشاركة فيها. كيف أفعل ذلك، ووالدهما الصيدلاني الستيني يخرج أيضًا فيها؟ إنما لم أتوقع اعتقال عروة، من أجل حركة «سلمية»، كما كنت أظن.

نغادر البلدة، وعروة مازال مختفيًا، منذ سبعين يومًا. لا ننجح في معرفة مكانه، سوى أنه موجود في أحد معتقلات «المخابرات الجوية»، الأسوأ بين الفروع الأمنية، على اعتبار أن الحاجز، الذي قبض عليه، يعود إليهم. يريد زوجي الصيدلاني أن يكمل «الحكاية هنا».

أنا «أبو مصعب». في اليوم الحادي والسبعين، من غياب عروة، أتلقى اتصالًا غريبًا مشوشًا، عبر هاتفي المحمول، من رقم مجهول. كأنه صوت عروة، يكاد يجهش بالبكاء «أبي، أنا موجود قريبًا منكم، في كراجات «السومرية»، تعالوا خذوني».

يطير صوابي، وأنا أسمع صوته، يدمي القلب.

يتساءل خاله محمد «في السومرية، حي «المستوطنين»؟ قد يكون هذا «كمينًا» لإلقاء القبض عليك، أو مساومتك عليه بأخيه مصعب، الذي انضم بالسر إلى صفوف «الجيش الحر». كيف يفرجون عنه هكذا ببساطة؟ لا بد أن هناك شيئًا غريبًا».

أقول «لكن صوته مأسوي، لا نستطيع التخلي عنه. لنذهب بسيارتك، لوحتها رسمية. أنت موظف في الدولة، وأنا رجل ستيني، فربما لا يتعرض لنا أحد».

نجد عروة مُلقى على قارعة الطريق، وسط الزحام، في حالة مزرية. لا يجرؤ أحد من المارة على الاقتراب منه. ترميه دورية أمنية من سيارتها، وتمضي. لا نتعرف إليه من النظرة الأولى لشدة نحوله وضعفه. نرى هيكلًا عظميًا، شعره طويل، مشعث قذر، ولحيته غير حليقة منذ اعتقاله، وعليه بقايا مزق من بنطال وقميص، وفي قدمه اليمنى فقط بقايا فردة شحاطة بلاستيكية. يقعي أرضًا، مستندًا إلى عمود مصباح كهربائي، يتلوى بألم شديد في معدته. فهمت لماذا أعادوه لنا، فلم يبق منه سوى شبه جثة. لحسن الحظ، تجرأ أحد العابرين، ومنحه اتصالًا سريعًا على هاتفه المحمول، ووصلنا إليه.

يجهش عروة في البكاء، عندما يشاهدنا. إلا أنه يدفعنا عن معانقته، وهو يقول «أنا مليء بالقمل، لا تقتربوا مني».

لم يتوقف طوال الطريق، عن ترداد «لقد عذبوني بشكل وحشي»، فيما كنا صامتين، والدموع في عيوننا.

«رغم اعترافي بتوزيع المنشورات منذ البداية، إلا أن السجانين لم يتوقفوا عن تعذيبي. يقولون لي بلهجتهم الساحلية «بدكون حريي يا أخوات العرصة؟ سترون الحريي الآن». ثم رموني في «الزنزانة المنفردة». لم أكن أقوى على النهوض، ولا حتى فتح جفنيّ. أحضروا لي كيسًا مملوءًا بالمنشورات، التي كنا نوزعها، وجعلوني أتناولها».

أنا وفاء. أستمر هنا برواية «الحكاية»، لأنني أعيش آلام عروة، بقلب أم حزينة.

من السهل معالجة عروة من حشرات القمل، من الكدمات والجروح والكسور، التي نالته في المعتقل. لكن تمزقات المعدة والأمعاء وصلت إلى حالة يُرثى لها، لم تُجدِ معها أي معالجة من قبل أطباء متخصصين، أصدقاء لزوجي. أضحى تناول طعامه جحيمًا لا يطاق. يجلس طوال الوقت واجمًا صامتًا، لا يرغب في الحديث مع أحد، دون أن نعرف ماذا يدور في رأسه.

لكن أتوقف هنا قليلًا، وأخبركم ما حدث مع ابني الكبير مصعب .

لم يعد مصعب يغادر «داريا»، منذ اعتقال أخيه عروة، خوفًا من اعتقاله هو أيضًا. طلب مني ومن والده «الابتعاد» عنها مؤقتًا، بعد اشتداد القصف عليها، فنحن متقدمون في السن، لا نستطيع الاحتمال، كما يقول. أما هو، فلا يرغب بمفارقة «البيت»، و«الحارة»، و«البلدة»، ويترك «المستوطنين الغرباء» يعبثون فيها. يريد الانتقام أيضًا لاعتقال أخيه الصغير، الذي غاب طويلًا في المعتقل، بسبب توزيع «منشورات سلمية».

منذ طفولته، مصعب هادئ ولطيف، يُعد نفسه، كي يكون مهندسًا متفوقًا في جامعته. لا أحد يدري من أين أتته الشراسة في الدفاع عن «داريا»، والقدرة على قيادة مجموعة قتالية فيها، كما يروي خاله خليل. نتلقى فجأة خبر موته، وتصلنا صورة جثته على الهاتف المحمول؛ جسده سليم، ليس به أي جروح أو بقع دماء، إنما دخلت

رأسه من الخلف شظية قذيفة، انفجرت قريبًا منه، عندما كان في موقع قتالي متقدم. يغيب عن الوعي بعضًا من الوقت، ثم يموت. بقيت صورته لدينا هكذا، تحمل صفاء غريبًا. يُدفن على عجل، في قبر ترابي صغير متواضع، باسمه الحركي «أبو حسن» حدث هذا في عام 2013.

يجنُ عروة، عندما يتلقى خبر موت أخيه. يتسلل إلى «البلدة» عبر الحصار، دون علمنا، وينضم إلى مقاتلي «الجيش الحر». كان الأمر محسومًا لديه، إنما ينتظر التئام جروحه. لكن موت أخيه يُسرّع الالتحاق بهم. يكمل خاله محمد هنا ما حدث مع عروة.

أنا محمد. أتصل بأخي خليل، عبر شريحة خاصة، باسم مستعار لأحد المعارف في تركيا. أطلب منه إبعاد عروة عن جبهات الاشتباك المشتعلة، لصغر سنه، ولـ «جموحه». إنما دون نتيجة، لا يستطيع ردعه. بعد سنة ونصف، يصلنا خبر موته. لم يصور أحد جثته، فقد تهشمت، وتمزقت، وتبعثرت بالكامل، عندما أصابتها قذيفة مباشرة. لم يبق منها سوى بقايا رأس وكتف، يتصل به ساعد ويد.

تتلقى أختي وفاء رسالة على هاتفي المحمول «مبروك لأختنا «أم مصعب»، والدة الشهيدين».

تزغرد، وهي تبكي.

تصلني على الهاتف المحمول صورة ثانية لقبرين ترابيين متجاورين، لمصعب وعروة؛ كومتين من التراب والحجارة الصغيرة والقش والأشواك، مُهالة بسرعة على حفرتين. انتصبت بينهما لوحة كرتونية شبه ممزقة، مليئة بثقوب، كتب عليها بخط، بالكاد يُقرأ

«الشهيدان «أبو حسن الصغير»، مع أخيه «أبو حسن الكبير»، رقم القبر «60»، 21/5/2014، داريا».

في إحدى زياراتي لمنزل أختي وفاء، تفتح خزانة، وتقول لي «وجدنا بيتًا أرخص للإيجار خارج هذه «البلدة»، لكننا لا نستطيع مغادرة الذكريات هنا. مازالت ملابس عروة معلقة على حالها، منذ أن غادرنا».

تخرج من صدرها ألف ليرة سورية، مغلفة بالنايلون الكريستال. تروي كان «عيد الأم» قد اقترب، قبل تسلله إلى «داريا». أعطاني الألف ليرة هذه، كي أشتري بنفسي الهدية. أحتفظ بها في صدري تميمة من رائحته، تحرسني».

أصبحت أختي وفاء، كما اسمها، رمزًا إنسانيًا نقيًا في عائلتنا، تحمل سمات والدتنا. لكن للأسف، ليس جميع أفراد العائلة مثلها.

لا تتوقف الآلام عند معاناة إيجاد عمل وسكن وطعام، أو الخوف من اعتقال مفاجئ، بل من طعنة تأتي من الخلف، من «الأهل الأحباء» أنفسهم، عندما يصبحون «غرباء القلب». الحرب تترك مآسي في الحياة، وشروخًا في القلوب والأرواح، فكيف لا تفكك الأواصر بين «الأحباء»؟

أنا سميرة. أقاطع الجميع، وأتدخل في رواية «الحكاية». بعد الخروج من «داريا»، تشعبت، وأصبح كل شخص يستكملها، كما يرغب.

قلت لكم سابقًا إن زوجي رجل مقتدر ماليًا، متدين بشكل

استعراضي، يهتم فقط بأمواله. عندما بدأت «الأحداث» في «داريا»، أول ما فكر به بأنها ستعرقل مشاريعه المالية المستقبلية. لما استشعر مبكرًا خطر اجتياح «البلدة»، جعل العائلة بكاملها تغادرها إلى «بلدة» مجاورة، يعتقد أنها أكثر أمانًا. نستأجر بيتًا مريحًا، في إحدى الحارات القديمة، حيث يتجمع «المُهجرون»، الهاربون من بلدات متمردة مجاورة. لسوء حظنا، لم نكن نعرف أن أهالي هذه الحارات يشاركون أيضًا بفعالية في المظاهرات ضد «النظام». كما أنها ليست بعيدة عن البساتين الكثيفة، التي غدت ملاذًا ل «المنتفضين»، ثم لـ «المسلحين» منهم. بدلًا من أن يهدأ زوجي، في هذه الأجواء المشحونة، عاد إلى عاداته الاستعراضية الدينية القديمة، يريد منافسة إمام المسجد في الحي، على إمامة المصلين، وإلقاء مواعظه الأخلاقية، فلفت انتباه «المخبرين المحليين».

يتم الإعلان عبر مكبرات الصوت، في أحد الصباحات، عن «منع التجول» في البلدة القديمة، والبساتين المحيطة بها. سرعان ما تجتاحها حملة مداهمات شاملة للمنازل، من قبل «ميليشيات النظام»، تدعمهم الدبابات. ترافقهم أيضًا جرافتان ضخمتان، تهدمان بيوت «الناشطين»، وتقتلعان أشجار البساتين المجاورة من جذورها، على امتداد مساحات واسعة، حتى لا تشكل مخبأً لهم. يرافق هذه الحملة «مخبرون» ملثمون، منهم محليون، ومنهم من البلدات المجاورة، مما جعل الاعتقالات تطال السكان المحليين و«المهجرين»، على حد سواء. وتم إعدام بعض المعتقلين ميدانيًا في الشارع مباشرة، وتركت جثثهم مرمية في الحارات حتى اليوم التالي.

يتم اعتقال زوجي بتهمة أنه مفتي «الجيش الحر» في «داريا»، مع أنه لا علاقة له بأحد، سوى أنه كان يتواجد في أحد مساجدها باستمرار. أما زوج ابنتي الكبيرة خلود، فقد كانت التهمة محددة عليه، وواضحة أكثر. استعان به «الإرهابيون» هناك على تشغيل بطاريات سيارات البلدية، المتوقفة في مرآبها منذ زمن طويل. لن ينفع الاثنين مغادرة «داريا»، وعدم وجود أي صلة للمقاتلين بها، فتقارير «المخبرين» صنفتهما «إرهابيين» دائمين، أينما يتحركان. ينجو ابناي ماهر وطارق من الاعتقال، مصادفة. كانا قد اختلفا مع والدهما، قبل مدة، حول مظاهره الدينية الاستعراضية، وما يعدانه بذخًا في حياتنا، وانتقلا للإقامة عند خالهما محمد، في بيته الآمن من «البلدة» نفسها. محمد استطاع بعلاقاته الجيدة إيجاد شقة في حي يقيم فيه عناصر من «ميليشيات النظام» و«مخبريه»، فلا تناله المداهمات.

يمضي وقت طويل، دون معرفة أي أخبار عن زوجي وزوج خلود في «المعتقل»، حتى جاءنا تبليغ رسمي من «الشرطة العسكرية»، يُعلن وفاتهما. يطلب منا الذهاب إلى «مشفى تشرين العسكري» في دمشق، من أجل استلام هويتيهما الشخصية، وبقايا أشيائهما. تبين أنها شحاطة بلاستيكية وحزام جلدي لكل منهما، هذا كل ما تبقى منهما. عندما طالب أخواي حسن ومحمد بمعرفة سبب موتهما، كان الجواب قاسيًا وجلفًا «أزمة قلبية مفاجئة». وبما أنهما «إرهابيان»، فلا يحق لنا استرجاع جثتيهما.

أنا محمد أتدخل هنا من جديد في «الحكاية». أختي سميرة وابنتها خلود باردتا العواطف نحو زوجيهما، ما يهمهما هو الحصول

على المال منهما وصرفه. لم تبديا حزنًا عميقًا على موتهما في المعتقل، فهذا خطؤهما، تقولان. للأسف، أصبحتا بليدتيّ الإحساس في زحمة الموت اليومي، الذي يُرافق حياتنا. أعرف أن جثتي زوجيهما، مثل الكثير من جثث أمثالهما من المعتقلين، رُميتا في حفرة جماعية، بعد أن انتزعت أعضاؤهما الحيوية. أصبح الحديث عن «مافيات الأعضاء البشرية»، بأسواق دولية، متداولًا في العلن؛ شبكة من أطباء في المستشفيات العسكرية، يديرها رجال أمن، ذوو سلطات مطلقة.

أما بشيرة، ابنة أختي سميرة الثانية، فهي الأسوأ في عائلة أختي. كانت في نزاع دائم مع زوجها الضابط في «داريا». رغم وجود طفلين في حياتهما، انتهيا إلى الطلاق. لكنها بقيت تحمل حقدًا دفينًا في داخلها ضده. أخيرًا، وجدت فرصة للانتقام منه، عندما تعرفت إلى «مخبر» محلي من «داريا»، في بداية «الانتفاضة»، كان يراودها، راغبًا بجسدها. طلبت منه كتابة «تقرير أمني» بحق زوجها السابق، بتهمة محاولة «الانشقاق» عن «الجيش النظامي»، والالتحاق بـ «الجيش الحر». تم اعتقال زوجها الطيب، ولأنه ضابط، اختفت آثاره. لا جثة ولا أخبار.

أنا ماهر، الابن الأكبر لسميرة، جاء دوري للمشاركة في «الحكاية». أقيم الآن، أنا وأخي طارق، عند خالي محمد، بعد نزاعنا مع والدنا.

انقطعتُ عن الذهاب إلى الجامعة في دمشق، خوفًا من «الحواجز الأمنية»، في أثناء تنقلي على الطرقات. تقارير «المخبرين» تلاحق أبناء «داريا» المهجرين، أينما تحركوا. يتم اعتقالهم بدعوى

تشابه الأسماء، أو على اسم العائلة، أو حتى دون أي مبرر. ثم يختفون، حتى دون جثة. بسبب انقطاعي عن الدوام في الجامعة، استنفذت فرص الرسوب فيها، وأصبحت بالتالي ملاحقًا بتهمة التهرب من «الخدمة العسكرية». رغم علاقتي السيئة مع والدي، يؤلمني موته المأساوي في المعتقل، هو وزوج أختي خلود. أخجلُ من نفسي أكثر، عندما أعلم أن أولاد خالتي وفاء، مصعب وعروة، قد استشهدا دفاعًا عن كرامتنا في «داريا». أصبحا بطلين في عيون العائلة وأهاليها، وتُنادى خالتي وفاء «أم الشهدين». يشتعل الحقد في داخلي، أرغب الالتحاق بالمقاتلين هناك، كي أنتقم للجميع ولكرامتنا. لكن خالي محمدًا يمنعني من ذلك، يُصر قائلًا «المعارك محتدمة بشدة هناك، ونفقد شبابنا سريعًا. نحن بحاجة إليك حيًا».

أنا محمد. أعود إليكم، من أجل «حكاية» ماهر. أعرفه جيدًا، جامحًا ومتهورًا، إذا لم نتدارك الأمر سريعًا، فسيتسلل إلى «داريا» لامحالة للقتال، ونفقده سريعًا. اتفقنا، أنا وأخي حسن، على أن نعمل على تهريبه إلى الشمال، ومن ثَمَّ إلى تركيا. لكننا نحتاج إلى مبلغ كبير من المال لدفعه للمهربين. تدعي سميرة أنه لم يعد لديها نقودٌ، فأملاك زوجها وورشته في «داريا» احترقت بالقصف، وتم صرف المدخرات لديها على الآجار والطعام. لا بل عرضت علينا بيع حصصها، في الكرم والحقل والدار، فهي تحتاج المال بعد موت المُعيلين لها ولبناتها. بالتأكيد، جُنت أختي، فمن لديه المال في هذه الأيام؟ ومن يفكر بالبيع والشراء؟ والممتلكات مدمرة، والموت يلاحق الجميع. لما أخبرتها بضرورة إنقاذ ابنها ماهر، طلبت مني بيع سيارتي العمومية، التي يتعيش منها عدد كبير من أفراد العائلة. لن تتخلى سميرة عن عادات البذخ

والشراء، رغم ظروف التهجير القاسية. أعرف أن لديها الكثير من الحُلي والمصوغات، التي كانت تشتريها وتتغاوى بها باستمرار.

أستقر الرأي، أنا وحسن، على بيع بقايا قطع ذهبية، أهديناها لزوجاتنا في عرسيهما، لتأمين نقود تهريب ماهر. تعترض زوجتانا، فما لديهما هو ضمانة للأولاد في مستقبل مجهول. إلا أننا نتغلب عليهما بالمحبة والإقناع. بالكاد جمعنا المبلغ، وتم تأمين تهريب ماهر إلى تركيا.

أنا سميرة. أخي محمد يروي «الحكاية» على هواه. منذ اعتقال مُعيلينا وموتهم، يشدد الرقابة علينا، أنا وابنتيّ، خلود وبشيرة. بما أننا نقيم في «البلدة «نفسها، يظن نفسه «كبير العائلة»، و«حامي شرفها». لكنه يحقد أكثر على ابنتي الثانية بشيرة، إذ يتهمها بأنها تسببت باعتقال زوجها الضابط واختفائه، بعد أن أغواها «مُخبر» من «داريا»، وأقامت معه علاقة حميمية سرية. هذا ليس صحيحًا، فمن يسميه محمد «مخبرًا»، كان يريد الزواج منها. أنا، في الحقيقة، لم أعد أحب المنزل المستأجر في «البلدة»، التي هُجّرنا إليها، فالحي سيئ السمعة، وعرضة باستمرار للمداهمات الأمنية، التي فقدنا فيها المعيلين. لذلك، عندما وجدتا، خلود وبشيرة، بيتًا في أحد أحياء دمشق الشعبية الآمنة، لدى معارف لهن، قررتُ الانتقال معهن، مادام لدينا بعض النقود. بالطبع، ينزعج محمد من فكرة انتقالنا بعيدًا عن رقابته. يأخذ طفلتيّ بشيرة تحت رعايته، بدعوى متابعة مدرستهما مع أولاده، ويخيرني بالبقاء معهما، أو الالتحاق بابنتيّ. أختار الذهاب مع خلود وبشيرة، اللتين تعرفتا على شابين، وعداهما بالزواج.

أنا خليل. غبت عنكم طويلًا، لكن لا تغيب عني أخبار العائلة، ولا أخبار «مُهجرينا». أستمر برواية «الحكاية». أعمل الآن في «المكتب الإعلامي للثورة» في «داريا». رغم الحصار والدمار، الذي يشتد علينا أكثر فأكثر، من قبل «جيوش المستوطنين»، نحن صامدون. ما تزال إمدادات المؤن والسلاح والذخيرة تصلنا، عن طريق أنفاق سرية، من مناطق «الانتفاضة»، في جنوب دمشق. نحاول منع «المخبرين» من التسلل بين «المُهجرين»، حتى لا يتم الاستفادة من المعلومات التي يمتلكونها عن «داريا» ضدنا. لذلك، لدينا نحن أيضًا شبكتنا السرية بينهم.

بدأت تتوارد إلينا أخبار عن إقامة كُلٍّ من خلود وبشيرة، بنتي أختي سميرة، علاقات مريبة مع شباب سيئي السمعة، في منطقة سكنهما الجديدة، في دمشق، رغم وجود والدتهن معهن. تخرجان معهم علنًا في الشارع، وترافقانهم إلى أماكن مشبوهة. تستغلان سفر أخيهما الكبير ماهر إلى تركيا، الذي كان مجرد وجوده يشكل رادعًا مباشرًا لهن. أما الأخ الثاني طارق، فهو صغير، لا يستطيع فرض سلطته عليهن. وسرعان ما ازدادت الشكوك المريبة حول تصرفاتهن، مع توارد الأخبار تباعًا عن أن من يقمن علاقات معهم هم من «الشبيحة»، التابعين لـ «الجيوش المستوطنين». وهؤلاء «الشبيحة» هم تُجّمع لأصحاب السوابق، في مناطق سكنهم. تم تجنيدهم ضد «الحاضنة الشعبية للانتفاضة» برواتب مغرية، ومقابل السماح لهم بالسلب والنهب على «الحواجز الأمنية»، و«التعفيش» في المناطق، التي يجتاحونها. تصل تأكيدات جديدة بأن خلود وبشيرة تحولتا إلى «مُخبرتين» طوعيتين، يتم استغلال ظروفهن الصعبة كمهجرات من أجل الحصول على معلومات أمنية،

ليس فقط عن أهالينا «المهجرين»، بل وعن المقاتلين داخل «داريا». لم يكن أمامي إلا إيصال هذه المعلومات إلى أخي محمد.

أنا محمد. لم أكن بحاجة للمعلومات من أخي خليل عن تصرفات أختي سميرة وابنتيها، فرائحة «خيانتهن» تفوح بين أوساط «المُهجرين». أتصلُ بسميرة، أذكرها أنها، هي وابنتيها، يحملن أسماء شهداء، ماتوا قهرًا في المعتقل، وأن عليهن الحفاظ على شرف العائلة. لغبائي الشديد، ظننت نفسي أنني الخال المحترم لابنتي أختي، فأرسلت لهما تهديدًا مباشرًا، عن طريق والدتهما، ودعوتهما للإقامة معي في بيتي، مع الاستعداد لتحمل مصاريفهن. لكن الحرب شوهت القلوب، ومزقت الأرواح، فقابلتا دعوتي بالسخرية.

ذات مساء، يُقرع باب بيتي بشكل عنيف ومفاجئ، يلتم أفراد العائلة في إحدى الزوايا مرتعدين، وأسرع لفتحه، قبل أن يتحطم. يفاجئني ثلاثة من «الوحوش» المسلحين ببنادق، يرتدون «اللباس المموه»؛ رجال ضخام مثل بغال، برؤوس محلوقة ناعمًا بالشفرة، ولحى طويلة كثيفة، وسواعد وأفخاذ مفتولة مثل عواميد، وعيون يتفجر منها الشرر. سرعان ما يقبض أحدهم على عنقي، ويرفعني عن الأرض بقبضته، فبدوت أرنبًا صغيرًا بين يديه. يجعر في وجهي «هل أنت الحيوان محمد، خال خلود وبشيرة؟». يجرني إلى خارج البيت، فيما أحاول التمسك بطرف الباب معاندًا. نظرتُ سريعًا إلى الخارج، فلمحت شاحنة «دودج» حديثة مموهة، على ظهرها مدفع رشاش «دوشكا» ضخم، يجلس فيها اثنان آخران من البغال. أدركت عندئذ أنهم قادمون لاختطافي، وإذا ما مضيت معهم، فلن أبقى حيًا. الكثير تم

اختطافهم لأسباب شخصية، في فوض هذه الحرب، بسلطة الملابس المموهة، واختفوا نهائيًا بموت مجاني.

أصرخ كالمجنون في وجه «الشبيحة»، مستخدمًا كل ما يخطر في ذهني من كلمات وشعارات «انتهازية»، كي يسمعني أهل الحي، وينجدوني. يقطن هنا عدد كبير من رجال الأمن وعناصر الميليشيات، الذين عقدت معهم علاقات طيبة، بحكم الجيرة، معرفًا بنفسي أني ضد «الإرهابيين».

يخرج أهل الحي من بيوتهم على صراخي، قدموا بأسلحتهم لاستطلاع الوضع. بما أن «الشبيحة» القادمين لاختطافي هم غرباء عن منطقتنا، وليست ضمن نطاق سلطتهم، فقد شعروا أنهم تورطوا معي. لم يستطيعوا إقناع أحدٍ من المجتمعين بأنني «إرهابي»، ينبغي اعتقاله. عندما وصلت الأمور إلى حد الاصطدام بالأسلحة، آثر «الشبيحة» الانسحاب. انطلقوا يشحّطون بسيارتهم، بعد ما عزفوا موسيقى رصاصهم في الهواء، وهم يطلقون التهديد والوعيد، وأنا أصرخ مثل أبله «يعيش الوطن، الموت للإرهابيين».

تصمت أختي سميرة عن فعل ابنتيها المُشين، وقد كاد يودي بحياتي، على عكس أفراد العائلة والأقارب، الذين قرروا مقاطعتهن. أضحى جرح الروح عميقًا. لكن القضية لن تنتهي عند طارق، الأخ الصغير لخلود وبشيرة، وقد بلغ الآن التاسعة عشرة من عمره. لحسن الحظ، كان غائبًا عن البيت، في تلك الليلة. بالتأكيد، كان سيهاجمهم بسكين مطبخ، ويفقد حياته رخيصًا.

طارق مرجلٌ يغلي، منذ مقتل الوالد والصهرين. عندما فقدنا

أولاد خالته، مصعبًا وعروة، أخذت تعلو لهجة جديدة لديه «سألتحق بالمقاتلين في «داريا»، وأنتقم لأولاد خالتي. بندقية مصعب وكوفية عروة تنتظراني، دم «الشهداء» يناديني».

أحاول دائمًا تهدئته، قائلًا «ستخدم «الانتفاضة» أفضل، عندما تحصل على الشهادة الثانوية، وتدخل الجامعة.

لكن عندما يعرف بحادثة اقتحام بيتي، في غيابه، ينفجر المرجل أخيرًا في داخله. يصرخ بجنون «منذ متى في عائلتنا «مُخبرات أمنيات»، يرسلن «الشبيحة» لقتلنا؟ لن تهدأ روح والدي، إلا إذا قتلت الخائنتين خلود وبشيرة بيديّ أنا».

أفكر من جديد، أنا وأخي حسن، بجمع مبلغ من المال، من أجل تهريب طارق إلى تركيا، عند أخيه ماهر، بدلًا من فقده. لكن تكاليف التهريب عبر الحدود التركية أصبحت عالية، وخاصة بعد أن أصبحت مغلقة في وجه السوريين الفارين. بالمقابل، استنزف التشرد والبؤس والمرض ما حملته نساء العائلة من ذهب الحلي، الذي خرجن به من «داريا».

بينما كنت أسعى لجمع مبلغ تهريب طارق، يفاجئني اتصال على رقمي السري، عبر الشريحة التركية «خالي، أنا طارق، أصبحت في «داريا». اخترقت الحصار، وانضممت إلى المقاتلين فيها».

أنا خليل. أستمر برواية «الحكاية» من داخل «داريا»، ومن موقع عملي الإعلامي، كناطق باسم «الجيش الحر». يشتد الحصار علينا، ليس فقط من قبل «جيش المستوطنين»، وإنما أيضًا من «الميليشيات

الشيعية» الطائفية، القادمة من خارج البلاد، بدعوى البحث عن «سرداب مهديها» في منطقتنا؛ «حزب الله» اللبناني، وأحزاب شيعية عراقية وأفغانية، بقيادة «الحرس الثوري الإيراني». لم يعد ينقصنا سوى هذه التخريفات من توهمات مشايخهم الممسوسين بالجنون. يبلغ القصف ذروته بالحاويات المتفجرة، التي تلقيها الحوامات علينا، ويحيل «داريا» أنقاضًا أكثر فأكثر. رغم أن الجوع أخذ يفتك بالمقاتلين، وبالقلة من الأهالي المتبقين فيها، إلا أننا بقينا صامدين تحت قسوة الحصار.

لكن الضربة القاصمة تأتينا من خروج بلدة «المعضمية» المجاورة لنا، من المعارك. «داريا» و«المعضمية» شبه متصلتين عمرانيًا، تتبادلان الدعم بخطط قتالية مشتركة. لكن مقاتلي «المعضمية» وأهاليها المتبقين لم يعودوا يستطيعون احتمال الحصار والقصف المتواصل، فينهارون. ويعقدون اتفاق «مصالحة» مع «جيوش المستوطنين»، وفق شروطهم المذلة. يشكل هذا ضربة قاسية لمقاتلينا، الذين يرفضون الاستسلام. لكن خروج «المعضمية» ينعكس على وضعنا القتالي بشكل سيء، إذ يؤدي ذلك إلى اختراق «جيوش المستوطنين» و«الميليشيات الشيعية» خطوط دفاعاتنا من جهتها، وبالتالي تضييق الحصار علينا أكثر فأكثر. تنكشف بالتالي الأنفاق السرية، التي كانت تمد البلدتين بالمؤن والذخيرة من الخارج، ويتم تدميرها. نصبح مقطوعين منها.

تمتلك «المعضمية» موقعًا استراتيجيًا مشرفًا على مطار «المزة العسكري» المجاور. وهذا كان يسمح لمقاتليها، الذين يمتلكون

مدافع بدائية مضادة للطيران، بتدمير الحوامات، المحملة بالبراميل والحاويات المتفجرة، قبل إقلاعها، أو على الأقل تعطيل إقلاعها. لكن مع خروجها من «القتال»، أخذت الحوامات تنطلق بحرية من المطار لقصفنا.

في هذه الأيام العصيبة من الحصار، يتسلل إلينا ابن أختي طارق، بجسده الصغير الغض، وجموحه المجنون. ينضم إلينا، نحن المقاتلين المنهكين، والمفتقدين للذخيرة والطعام. لم يجد الوضع البطولي، الذي كان يسمع عنه أيام مصعب وعروة، ويسحره. كانت «الانتفاضة المسلحة»، في وقتها بأوج حيويتها، لا تنقصها الإمدادات عبر الأنفاق السرية. صمدنا ببطولة، رغم أننا فقدنا أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل دفاعًا عن «البلدة». الآن، لدينا جوع حقيقي، الطعام ينفد لدينا شيئًا فشيئًا، وأسعاره بين قلة الأهالي المتبقين ترتفع إلى أرقام خيالية. تظهر بوادر خلافات بين فصائل المقاتلين لأول مرة، يفكر بعضهم بالانجرار إلى «المصالحات»، كما فعل مقاتلو المعضمية... لقد بدأ الحصار يكسرنا.

أنا طارق. للأسف، سأروي النهايات القاسية لـ «الحكاية». تسللت إلى «داريا» لأنتقم لكرامتنا. تمر خمسة أشهر، وأنا مع المقاتلين، في ظروف صعبة منهكة. يصيبني الإحباط، لم أعد أستطيع الصمود. أكتب لخالي محمد على الهاتف المحمول رسائل متتالية «مر علينا، يا خالي، يومان، دون طعام». «غداء المقاتل على خط النار أصبح قبضة خبز يابس، وقليلًا من الحشائش». «نأكل خبزًا من طحين العدس، لا طعم له، ولا مذاق». «أكلنا ورق الشجر، وحشائش الأرض». «ننتظر

بداية الربيع، ونمو نبات الخبيزة، كي نأكله». «ظهرت فتوى دينية بالسماح لنا بتناول لحم القطط والكلاب». «أهجرُ المقاتلين، وأتخلى عن السلاح، الجوع كسرني».

أصبحت مثل الممسوس، أسير في الطرق بلامبالاة، فيما القذائف الصاروخية والحاويات المتفجرة تنهمر حولي. تنفجر وتتطاير شظاياها، لا يصيبني منها شيءٌ. لا أدري، لماذا يموت المختبئون في الأنفاق والأقبية منها، وأنجو أنا.

حتى أستطيع الاستمرار بالحياة، ينبغي البحث عن مورد مالي أتعيش منه. لم أجد أمامي إلا تصنيع المازوت والبنزين من مخلفات البلاستيك، بطريقة بدائية. رغم خطورة هذه المهنة، التي تتطلبها المناطق المحاصرة بشدة، لم يكن أمامي أي بديل عملي آخر. الأصعب فيها هو جمع مخلفات البلاستيك، من مكبات النفايات القديمة وأنقاض البيوت المدمرة. يحدث هذا وسط تنافس شديد بيننا، نحن الجامعين، غير آبهين بالقصف، ونحن مكشوفون في العراء. لما انتهت المخلفات البلاستيكية من وسط «داريا»، كان علينا التسلل قريبًا من خطوط النار، حيث تكثر خرائب البيوت المدمرة المهجورة، الممتلئة ببقاياها. لكن نتحرك تحت خطر القنص لكل ما يتحرك، حتى لو كان حيوانًا. هناك، يصبح التنافس أشد بين الجامعين على الموت.

ما إن يجتمع لديّ ملء برميل معدني من مخلفات البلاستيك، حتى أضغطها، وأغلق عليها بإحكام. عليّ بعدئذ تأمين اشتعال نيران قوية دائمة تحته. وعبر أنبوب معدني، يخرج من البرميل، بطول خمسة عشر مترًا، ملفوف بقماش قاسٍ، يمر البلاستيك الذائب، ويتحول إلى

بخار سام. حتى يتحول البخار إلى وقود سائل، ينقط من طرفه الثاني، عليّ سكب الماء على الأنبوب ذهابًا وإيابًا، دون توقف. إذا كانت المخلفات البلاستيكية ملونة، أحصل على المازوت، أما إذا كانت بيضاء صافية، فعلى بنزين. وفي كلتا الحالتين، هذا الوقود سيئ جدًا، لا يمكن الاستفادة منه للسيارات، ولا يصلح إلا لمولدات الإضاءة.

ينبغي العمل ما يعادل نهارًا ونصفًا، كي أحصل على «بيدون» صغير من المحروقات، أبيعه بمبلغ خمسين ألف ليرة. لكن مهلًا، فقد وصل سعر «سندويشة الفلافل»، التي كنا نشتريها بمئتي ليرة، إلى عشرة آلاف ليرة، هذا على سبيل المثال. كما أنني من كثرة الضغوط النفسية، لم أستطع التوقف عن التدخين الكثيف، وينبغي شراء علبة السجائر المحلية يوميًا بثلاثين ألفًا. هكذا، ينهار الأهالي في المناطق المحاصرة، في غياب الامدادات والدعم.

أنا محمد. أمام الرسائل المتتالية من طارق، بدأت أخاف عليه من الانهيار النفسي، والانتحار.

أنا خليل. أقدم لكم بيانات مكتبنا الإعلامي، التابع لـ «المجلس المحلي»، الذي يدير شؤون البلدة المدنية والعسكرية، في أثناء الحصار. ستعرفون، لماذا مضت «الحكاية» إلى نهاياتها الحزينة.

خلال أربعة أعوام، بالضبط خلال 1370 يومًا؛ من بداية تشرين الثاني 2012 حتى 26 آب 2016، ألقيت على «داريا»، التي لا تتجاوز مساحتها 20 كم 2، 7849 برميلًا متفجرًا، من الحوامات، التي كانت تنطلق من مطار «المزة العسكري» الملاصق لها. يُضاف إليها قصفٌ بأعداد هائلة من الصواريخ وقذائف المدفعية، تُطلق من التلال

المحيطة بها. صمدت «داريا» بالمقاتلين من أهاليها، المزودين بأسلحة دفاعية صغيرة ومتوسطة، في وجه الجيوش الخاصة لـ «المستوطنين»؛ «الفرقة الرابعة» و«الحرس الجمهوري»، المدعومين من «الميليشيات الشيعية الإيرانية»، دون أن يستطيعوا اقتحامها. عندما جاء الروس غزاة إلى بلادنا، أداروا الهجمات على «داريا» بسياسة «الأرض المحروقة»، وفق خبراتهم التاريخية في قمع «انتفاضة الشيشان» ضدهم، ومسح عاصمتهم «غروزني» عن الأرض بالكامل.

بعد أن فُصلت «داريا» عن «المعضمية»، أخذت مساحتها المحررة تتقلص وتنكمش. ازدادت وتيرة القصف عليها، بحيث بلغ عدد البراميل المتفجرة الملقاة عليها في يوم واحد 47 برميلًا، مُلئ بعضها بالنابالم الحارق. في النهاية، اضطر المقاتلون إلى الانسحاب من بلدتهم الصغيرة باتفاق تفاهم، حفاظًا على حياة من تبقى فيها من مدنيين، لم يتم استثناؤهم من مغادرتها أيضًا.

كان من الممكن لـ «داريا» أن تصمد، لولا التواطؤ الإقليمي والدولي على إسقاطها، لصالح مشروع التغيير الديموغرافي «الإيراني ـ الشيعي» في المنطقة. ألزمت «غرفة المُوك الجنوبية»، التي تديرها مجتمعة «المخابرات الأمريكية، والإسرائيلية، والأردنية، والسعودية، والقطرية»، فصائل «الجيش الحر» الجنوبية بعدم نجدتها، تحت طائلة قطع دعم الأسلحة والذخائر عنها، وإيقاف الرواتب الشهرية عن مقاتليها. كان من المفترض على هذه الفصائل القوية أن تزحف إلى دمشق منذ سنتين. إلا أنها تحولت إلى «مجموعات بيروقراطية»، متعيشة من المساعدات الإقليمية، وفق سياسات الدول الداعمة

ومصالحها، خاضعة لـ «فيت و« أمريكي ـ إسرائيلي» منع التسليح الفعال لها.

عاشت «داريا» في بدايات «الانتفاضة» عام 2011 حراكًا مدنيًا ديمقراطيًا، مع أيقونات سلمية. وتشهد واحدة من أكبر مجازر «النظام الديكتاتوري» في البلاد؛ مجزرة «السبت الأسود» الشهيرة، بتاريخ 25 أب 2012. سقط فيها من أهاليها 512 قتيلًا موثقين بالأسماء، و200 قتيلٍ مجهولي الهوية نتيجة التشويه، دون حساب المعتقلين المفقودين. تعرض الأهالي إلى عمليات إعدام جماعية، فقضى معظمهم برصاصات في الرأس والصدر مباشرة، تكدس منهم 120 قتيلًا في قبو مسجد واحد التجؤوا إليه. في 21 آب من عام 2013، تتلقى «داريا» و«المعضمية» المجاورة نصيبهما من ضربات «الأسلحة الكيماوية»، التي أطلقتها وحدات من «جيوش المستوطنين»، على مناطق «الغوطة الشرقية» و«الغوطة الغربية»، راح ضحيتها المئات من القتلى اختناقًا. منذ ذلك الوقت، تم الانتقال إلى «عسكرة الانتفاضة»، وسيطر «المنتفضون» على «داريا» لمدة أربع سنوات، حتى لحظة سقوطها في عام 2016. شكل أهاليها 90 بالمئة من مقاتليها، والباقي هم من الجنود المنشقين من البلدات المجاورة.

من أصل عدد سكان «داريا»، البالغ عددهم أكثر من 250 ألف نسمة قبل الانتفاضة، لم يكن موجودًا فيها، يوم «اتفاق الخروج»، إلا نحو900 مقاتل، وأربعة آلاف شخص مدني فقط، بينهم ألفان من الأطفال، بعدد ستمئة مولود منهم خلال سنوات الحصار الأربعة. كان على الجميع مغادرتها. بلغت نسبة الدمار فيها 90 ٪. أما بقية أهالي

«داريا»، فقد أصبحوا خلال هذه السنوات الأربع مشردين مهجرين، داخل البلاد وخارجها، بلا رائحة كرومهم وحقولهم.

أروي لكم الآن عن اليوم الأخير لنا في «داريا». يتوقف القصف المجنون أخيرًا عليها، في يوم الاتفاق. يستطيع الأهالي الآن التجول فيها. لكن للأسف، لبضع ساعات فقط، فعلى الجميع مغادرتها بلا استثناء. ستقل الحافلات الرسمية؛ «الباصات الخضر»، «المقاتلين» وعائلاتهم بعيدًا إلى «محرقة الشمال»؛ إلى مدينة ادلب، بأسلحتهم الفردية فقط. ويُجرد المدنيون من بيوتهم وممتلكاتهم وذكرياتهم، ويكدسون في مراكز إيواء جماعية خارج «داريا»؛ مجرد مهجرين، مهددين بالجوع والشقاء، تلاحقهم التحقيقات والاعتقالات.

تزور النسوة المتشحات بالسواد مقابر الأبناء، الذين سقطوا قتلى بالمئات في السنين الخمس الأخيرة. يلقين عليها النظرة الاخيرة، بعيون دامعة، ويوشوشن لهم بالأعذار؛ لن يحملن لهم الورود بعد الآن. يمضين إلى المجهول، لا يعرفن إلى أين، لكنهن يعدْنَهم بالتواصل معهم دائمًا بهمسات الأرواح. امرأة تعانق شاهدة قبر، وتحدثها. ثانية تروي من زجاجة ماء وردة بيضاء، نبتت عند رأس قبر. ثالثة أغمضت عينيها، تتخاطر مع روح فقيدها للمرة الأخيرة عن قرب. سبع من النساء يجلسن حزينات، حول مقبرة جماعية، تضم جثثًا وأشلاء.

يزور الرجال المتقدمون في السن، للمرة الأخيرة، كروم عنبهم الشهيرة، المحترقة. يودعونها بنظرات حزينة، وقد تركوا قبسًا من أرواحهم فيها. إلا أنهم يقطعون منها أنصابًا صغيرة، كي يزرعوها في الأراضي، التي سيرميهم بها الزمان، فتحيا ذاكرة «عنب داريا» من جديد، عبر الأيام.

يقوم الأولاد بوداع أخير لمدارسهم المهدمة، لفرشهم الممدودة في الأقبية، التي أوتهم من الغارات، للكتابات القديمة على بقايا الجدران، «يسقط النظام»، للحارات المغلقة بأنقاض وركام بيوتهم. لا تستوعب عقولهم الصغيرة، لماذا يُهجرون. لكن لا وعيهم العميق ينجدل برائحة الذكريات. عندما يكبرون، ستتفجر في أرواحهم حنينًا مبدعًا.. أو ربما حقدًا بلا حدود. أما الأطفال ما دون الخامسة، الذين ولدوا هنا، ولم يعرفوا سوى القصف والأنقاض، فيسألون أمهاتهم «إلى أين نحن ذاهبون؟»، «مشوار، إلى مكان حل و»، «هل هناك حلوى وشوكولا، التي يحدثنا عنها الأولاد الكبار، وأراجيح لا تقصفها الطائرات؟».

أنا ياسمينة، عمري تسعة عشر عامًا. أحرق مقتنياتي الشخصية، الموجودة في القبو، الذي كنا نختبئ فيه، أنا وأهلي؛ ألعاب الطفولة، بضع روايات، دفاتر وجوائز مدرسية قديمة، رسومات ورقية، وما تبقى من ملابسي القديمة، التي لن أستطيع حملها معي، حتى لا تقع في أيدي «الغرباء»، الذين «سيعفشون» البلدة بعد مغادرتنا لها. أحرق المخدات، التي طرزتها بدوالي العنب، وفراشي، الذي ما يزال يحافظ على رسومات زهوره متألقة. لا أرغب أن ينام عليها أحد من «الغزاة الغرباء»، ويشم رائحة أحلامي وأمنياتي الليلية. أحطم فناجين القهوة، حتى لا يتذوق أحد طعم شفتيّ عليها، والصحون، والكؤوس، وصندوق مكياجي الصغير، وعلبة مستلزمات الخياطة والتطريز. أود لو أحرق كل مقتنيات الدار الحجرية القديمة، لكن الأنقاض تغمرها، منذ أن سقط برميل متفجر فوقها، في العام الماضي، واختلطت بدماء والدي السبعينيّ، شبه العاجز. كان يرفض الالتجاء إلى قبو البناية

المجاورة مثلنا، عند سماع صوت الحوامات قادمًا، مرددًا «العرائش تموت في مهدها، لكنها تترك أقلامًا تنمو من جديد».

أستثني من الحرق بعضًا من بقايا ذكريات أخي، الذي راح ضحية مجزرة «السبت الاسود»، قبل ثلاثة أعوام ونصف؛ وصورًا جماعية مع العائلة، والقميص الملطخ بالدماء، الذي كان يرتديه عند موته. أضعها بعناية في كيس بلاستيكي، وأطمرها عميقًا في التراب، داخل حديقة الدار، تحت شجرة التوت. سيأتي يوم، ويعود أولاده إلى هنا، ويستعيدونها، هي ورائحة الذكريات المتعشقة بها. أما خاتم خطيبي، الذي قتل منذ عام، في أثناء صد هجوم على «داريا»، من جهة مطار «المزة العسكري»، فأعلقه في سلسال رقبتي الفضي، وأخفيه تحت قميصي، حيث ينبض القلب. أحمل معي في حقيبة صغيرة ألبوم صور العائلة، ورسائل خطيبي العاشق، ودفتر مذكراتي. سأجد من ينشره لي في كتيب ذات يوم، حتى تبقى ذاكرة الألم والرعب والموت متقدة على مر الأيام.

أنا خليل. أقف على باب واحدة من الحافلات، التي ستقلنا إلى إدلب، ويدي تشد على بندقيتي. تلتقي نظراتي المتحدية بالنظرات الشامتة لأفراد من «جيش المستوطنين»، والمسافة بيننا أمتار، عند منفذ «داريا». كنا ندافع عن بيوتنا وكرومنا ومستقبل أطفالنا، وفقدنا الكثير من القتلى، وأنتم زحفتم من قراكم البعيدة في الجبال، ممتهنين السلب والنهب. لو كانت الظروف الإقليمية الدولية لصالحنا، لكنتم أنتم من تعودون إلى قراكم مهزومين.

«عبدتم طريقكم بالدم، والدم لا ينسى الدم».

أنا محمد، سأنهي رواية «الحكاية» الآن. أنا وأخي حسن من القلائل المحظوظين، الذين سُمح لنا بالدخول إلى «داريا»، لمدة ساعة واحدة، كي نطمئن على «خراب بيوتنا»، بعد انسحاب مقاتلي «الجيش الحر». نحن محسوبون على «المؤيدين، إذ غادرناها منذ البداية. لكن هذا لا يعفينا من دفع مبلغ عالٍ جدًا من المال لضابط كبير كـ «أتاوة» دخولنا. خصص لنا مرافقًا عسكريًا مسلحًا، عليه أن يراقبنا بطريقة لصيقة طوال الوقت، ونحن نحاول الحصول على «الكنز المدفون»، تحت بيتنا، ويستولي عليه. مر «المعفشون» على البيوت، ونهبوا كل ما يمكن بيعه.

نقف، أنا وحسن، أمام دمار بيتنا، ضمن بحر متلاطم الخرائب. ألقت الحوامات فوقه ثلاث حاويات متفجرة، تركته مدمرًا بالكامل؛ واحدة في الحديقة، والثانية فوق مسكني تمامًا، مسحته تمامًا، والثالثة فوق المدرسة الملاصقة له. أما الدار القديمة، التي كانت تقيم بها والدتي وأختي سمية، فلم يحتمل حجرها وطينها سوى قذيفة واحدة، لتطير في الهباء، وتتلاشى بالكامل؛ هي ومدحلتها، وجاروشتها، وخوابيها، وقدورها النحاسية، ومحراثها العتيق، ومعها ظلال الغسيل، الذي كانت تنشره أمي على حبال مشدودة في إحدى غرفها. بين أنقاضها، ألمح بعض العلب المعدنية الصغيرة الثمينة، المبعثرة هنا وهناك، التي كانت تجمع بها والدتي الخرز والبرق الملون، لتزيين الملابس وصور الأقمشة. تركها «المعفشون»، إذ وجدوا أنه لا يمكن بيعها. ألملم بعضها في كيس بلاستيكي، ستفرح بها ابنتاي ريما وحنين، وتلعبان بها، دون تأنيب جدتهما.

نجتاز ركام الدار القديمة، ونمضي إلى مسكن أخي خليل، إلى غرفة أطقم القيشاني الخاصة بوالدتي. هبط السقف المشقق بقوة الانفجارات مائلًا فوق خزنها، فسحقها بالكامل، هي ومحتوياتها. أنبطحُ أرضًا، أحاول مد رأسي لأشاهد ما حدث لها، فلا أرى سوى كسراتها، مختلطة بالأنقاض. يصرخ بي أخي حسن «ماذا تفعل يا مجنون، ألا ترى أن السقف معلق، ويمكن أن يهبط فوقك في أي لحظة؟».

يضحك مرافقنا العسكري، ويقول «اتركه، ربما يعرف مخبأ الذهب هنا».

في غرفة ثانية من مسكن خليل، ما يزال جداران ناهضين، إنما مشققان، ويمكن أن يسقطا مع أي اهتزاز. خزانة مكتبته، المصنوعة من خشب الشوح، مقلوبة على أرضية الغرفة، محطمة بالكامل، بفعل انهيار الجدار وجزء من السقف عليها، الكتب ممزقة، ومبعثرة بين الأنقاض. لم يهتم بها «المعفشون»، فمن سيشتريها منهم في هذه الأيام. لم يجد حسن شيئًا يفعله في هذه الفوضى سوى لملمة بعض الكتب، وسط نظرات سخرية متهكمة من مرافقنا العسكري. إلا أنه سرعان ما يرميها، بعد أن شعر بعبثية ما يفعله.

بينما نعبر الحديقة، باتجاه ركام مسكني، ألمح أقنان الأرانب، التي بناها أخي خليل في طرفها، ماتزال سليمة، رغم كل الانفجارات حولها. مرة سألت خليلًا على الهاتف المحمول عن الأرانب، رد ضاحكًا «العوض عليك، الشباب تناولوها وجبة شهية من زمان، في استراحة بين المعارك».

أشجار الحديقة محروقة بالقصف، بما فيها الزيتونة «المباركة»، التي كانت تحرسها جنية، عند طرف حفرة «الكنز المرصود»؛ احترقت هي وجنيتها. أما شجرة «التوت الهزاز»، التي زرعها والدي، قبل وفاته بعام، وكانت ابنتي حنين تتسلقها، وهي تنادي «ماما، صوريني مع العصافير»، فلم يبق منها أي أثر. سقطت الحاوية المتفجرة عليها مباشرة، فاختفت، هي وصوت ابنتي وزقزقة العصافير، التي كانت تزين أغصانها.

عندما عرف الأولاد بأني ذاهب إلى بيتنا في داريا، قالت لي الصغيرة حنين «هناك رسوم ملونة لي ولريما، معلقة على جدار غرفتنا، انزعها بلطف حتى لا تتمزق، وأحضرها... لا تنس. في هذه الأيام، كل ما أطلب منك شيئًا، تقول لي «نسيت»».

تتقافز ريما أمامي، وهي تقول «بابا، أرجوك، أحضر لي الحقيبة المدرسية الزهرية، تركت فيها صور أصدقائي من حيوانات الغابة، وقصص الأطفال، وأعداد مجلة «ماجد» الإماراتية، التي كنت أجمعها. تأكد بالذات من وجود العدد، الذي تم الإعلان فيه عن اسمي بين الفائزات بجائزة «مسابقة معلومات». انتبه وأنت تحملها حتى لا تسقط هدية المئة درهم، التي وصلتني، وخبأتها فيه. لن تزعجك، تركتها جميعها مرتبة على رف المكتبة، التي صنعها لي عمي خليل. أريد أيضًا علبة القرطاسية، فأمي لا تشتري لي واحدة جديدة، مدعية أن ليس معها نقود... انتظر، لا تنس «مجسمات الحيوانات»، التي صنعها لنا عمي خليل، تركتها على طاولة الكتابة، عندما غادرنا البيت هاربين».

أيهم بقي أكثر جدية ورصانة بطلباته، أصبح كبيرًا، يدرس الآن

في السنة الأولى من كلية الحقوق. يدرك أن بيتنا مدمر، وأن «المعفشين» سبقونا إليه، ولن أجد شيئًا مهمًا. رغم ذلك، قال بلامبالاة «إذا وجدت لعبة «الأتاري» الإلكترونية، فأحضرها».

تذكرت طلبات أولادي، وأنا أقف أمام ركام منزلي، الذي مسحته حاوية متفجرة من الوجود. انحنيت، وأخذت أحفر بيديّ كالمجنون بين الأنقاض، علّي أجد شيئًا لهم. انتبه حسن إلي، وقد بدا له أنني فقدت عقلي. إلا أنني وجدت أخيرًا شيئًا ما، كان دبدوب ريما، رفيقها الدائم في النوم، الذي لا تنقطع عن محادثته. كان ينظر إلي من تحت الركام، وهو يتطلع إلي بعينيه الزجاجيتين نظرة رجاء، تقول «أخرجني من هذا الركام، وخذني إلى ريما».

انتهت رواية «الحكاية»، لكن من كان يرويها، أفراد عائلتي، أم المئات من أفراد عائلات «داريا»، أم الآلاف من أفراد عائلات «المدن»، و«البلدات» و«القرى» المنكوبة؟

انتهت رواية «الحكاية»، لكنها ستبقى خضراء يانعة في ذاكرة الأجيال.

الفصل الثالث

داريا المجزرة

المروحيات الوحشية لا تنقطع عن التحليق في رأسي؛ ورأسي «بلدة ـ داريا»، دويٌّ انفجارات. مختنقة بقيظ صيف، ودخان حرائق، تلتهم الشجر والحجر. يحجب اشتعال كروم العنب، وحقول القمح، والبساتين، المنطفئة باليباس؛ كانت تزهو ذات حكايات خضراء، تحت ذهب الشموس.

ترمي المروحيات أحقادها، براميل موت متفجرة. ترتج روحي والبيوت بزلزلات هادرة، تتالى أصداؤها وحشية في ذاكرة المكان. لا تتبدد الموجات، إلا وتترنح جدران قلبي والمنازل أنقاضًا، فلا تنهض. أبعثر الدخان من الذاكرة بتلويحات متعبة، فتتعالى نداءات الأحياء، المتشظية بالأنين، ويسْتلّهم الصدى في عداد الأموات. تتناثر أشلاء جثثهم في ثنايا الأزقة والحواري والأيام.

تنسل المروحيات من رأسي إلى صالة عرض، مترامية في الهواء الطلق، تصل بقاع الأرض بعنان السماء. تمتد من نهوض التلال الجرد غربًا، إلى اشتعال الكروم حرائق شرقًا، وبعمق يمضي إلى أقصى ما يكشفه تبدد الدخان، في حقول الجنوب. على خاصرة «دمشق»، تقع «البلدة»، والفيلم يُنتج فيها، ويُبث مباشرة. تجري أحداثه في منازل

آهلة، حُكم عليها بالدمار. وأسندت أدوار البطولة فيه لسكانها الأحياء، تتطاير أشلاء جثثهم مباشرة في الهواء، مع انفجار البراميل، دون رتوش أو خدع سينمائية.

يشاهد الفيلم يوميًا العابرون بـ «مركز انطلاق الحافلات»، المشرف على «البلدة»، من جهة «دمشق»؛ مسافرون أشباح، دون هياكل عظمية، تشد قاماتهم، دون ملامح وجوه، ترسم انفعالاتهم، مجرد ملابس مهترئة تجر نفسها. يسيرون، وينظرون مذهولين، بلامبالاة، في اللامكان، خارج الزمان. لعب معظمهم أدوارًا في «أفلام شبيهة»، في «بلداتهم المدمرة»، ونجوا بجثثهم، قبل أن تتناثر أشلاء. حملوها معهم، وتحولوا إلى «مُهجّرين»، في صحارى القلوب، يستجدون الشفقة ولقمة العيش. بحثوا عن معنى لحياتهم، ذات «حكاية»، ذات «انتفاضة»، في ضفة، انهارت الآن، لم تخلف سوى الدمار، في الديار والأرواح. يتنقلون، مذعورين من الاعتقال، عند عشرات «الحواجز الأمنية»، لمجرد انتمائهم إلى «بلدات أنقاض».

أنا من «البلدة ـ داريا»، ومررت مرة بين «العابرين المسافرين».

أشعر بالغربة بينهم، إذ إنني تركت قطعة من القلب هناك، في «البلدة»، في دار العائلة؛ أبي يصدح عتابا، وهو ينضح الماء من البئر، وأمي تشدو، وهي تخبز في التنور، وأنا ألثم ابنة الجيران الخجلى، في ظلال شجيرة رمان. آخر الصور، أرسلها لي أحد الأصدقاء، الذين بقوا في «البلدة»، عبر الهاتف المحمول، كانت منذ عامين. ثم انقطعت الأخبار مع إصابته بشظية قذيفة، أدت إلى موته.

على الأرصفة، هنا، ينتشر بكثافة مخبرو «الأجهزة الأمنية

السرية» العلنيون، تحت غطاء بائعي بسطات. يهرشون ذقونهم غير الحليقة، منذ سنوات زحفت قطعانهم المتوحشة المنفلتة من «القانون»، من «الجبال الساحلية» إلى «دمشق». يبيعون علب الدخان، وأوراق اليانصيب، وحبوب «الكبتاغون»، أو أي شيء آخر، لا يهم، إذ يمكنهم بيع «الهواء» أيضًا. المهم أن يتسللوا إلى أحاديث «العابرين»، ويعتقلوا من يشمون منه رائحة خضرة الحقول. ينفردون بارتداء سترات عسكرية مهترئة، مموهة، تصلح للتخفي في أثناء المعارك، في مختلف البيئات؛ الصحراوية، أو الجبلية، أو الساحلية، مع أنهم لا يشاركون في أي منها. لا يهم أيضًا، فوقتهم مكرس للمناوبة بين البسطات والمعتقلات. تظهر من تحت سترهم أسلحة خفيفة؛ مسدسات، رمانات، حراب، وفؤوس، ومعها قيود اعتقال؛ أزياء وأدوات، ملوثة بدماء المعتقلين، تميز انتماءهم إلى قطعان طائفة «الجنرال السفاح»؛ قطاع طرق معاصرون، مافيات، بدراجات نارية، وسيارات أجرة، ينهبون الدولة والعباد، بتشريعات رسمية منه... أعرفهم، تختنق بهم الطرقات والرئات، وهم يلاحقون الهمسات والأنفاس.

على جانب الطريق الشمالي، تنهض أبنية «مستوطنة عسكرية»، مزنرة بأدغال أشواك، ونفايات مكدسة، منذ بنائها. واحدة من «أحزمة موت»، تحاصر دمشق المختنقة بها، عبر التلال المشرفة عليها. يستقر فيها عناصر المافيات وقطاع الطرق الطائفيون، مع عائلاتهم؛ «الغرباء» عن رائحة الأرض والذكريات. أراها، وأنا أعبر الطريق؛ بنايات من ثلاث طبقات، مطلية بألوان البذلات العسكرية المموهة. تقشرت جدرانها، وتلطخت بالسّخام، على مر السنين، فبهتت، وتشوهت صور « الجنرال السفاح» الضخمة، المرسومة على كامل جدرانها الجانبية. غدا بعضها دون عين، أو أنف، فأضحى الوجه لمسخٍ، دون ملامح

بشرية، وامّحت نجوم الرتبة العسكرية عن بعضها الآخر، فأصبح مجرد جندي صغير، أو امتلأت بالثقوب، كمن تعرَّض لعملية إعدام. على الشرفات، تكدست عشوائيًا خرائب أشياء بالية، أحضروها من قراهم الجبلية، من بينها «سيوف الإمام العتيقة»، يشحذونها باستيهاماتهم الممسوسة، عطشى للدماء. لا أصص زهور، لا أمسيات، فلا حكايات لديهم، سوى أخبار المعتقلين وطرائق تصفيتهم.

أمام أبنية «المستوطنة»، يمتد صف «أكواخ صفيح «، ينتشر أمامها حطام طاولات عتيقة؛ مقهى تُوزع فيه جميع أنواع المخدرات، لرواده من قطاع الطرق المهووسين. يسافرون بها، بهلوسات أكثر إثارة، مع أحداث الفيلم، الذي يجري أمامهم، في «داريا»، وهم يقرقرون بمصاصات مشروب «المتة»؛ العادة اليتيمة التي حملوها من قراهم الجبلية. ينتشون بموسيقى الانفجارات، وهم يتقافزون فوق كراسي القش، ويضربون الطاولات بالأكف نشوة.

أصل مدخل «مركز انطلاق الحافلات»، توقفني على حاجز أمني «مُسوخٌ» مسلحة، ترتدي الملابس المموهة. من أين تحضر هذه المسوخ الوحشية، بقروح في الوجوه، أنياب طويلة، وقرون نبتت في رؤوس متضخمة؟ تتدلى من أشداقها ألسنة طويلة، تلهث بها باستمرار، وهي تبحث عن طريدة بين العابرين. يتفحص واحد من «المسوخ» بطاقتي الشخصية، ينكشف مكان ولادتي؛ في «داريا». يرفع رأسه في الهواء، يعوي. يتصبب جسدي عرقًا، أتمتم «غادرتها منذ زمن بعيد، أنا الآن هنا مجرد عابر».

يلطمني «المسخ» بمخلبه. يرميني أرضًا، مكسور الفك. يهبط

فوق صدغيّ بوط عسكري. ينهرس دماغي و«البلدة» في رأسي، أغرق بدمائي ودماء النازفين بين الأنقاض. أرى من الأسفل قوائم ثيران في أبواط عسكرية، إنها سيقان «المسوخ»، تركلني من كل اتجاه. تصرخ مع كل ركلة «هي مشان الحرية». تطفو أمام عينيّ «أكواخ الصفيح»، هي وروادها المهلوسين، في اشتعال الحرارة سرابًا. تتقافز منها «المسوخ»، وعواؤها يملأ الأجواء. تحاصرني وتنسل إلى رأسي. هي من تقود الحوامات فيه، وترمي منها البراميل المتفجرة.

البوط يضغط أكثر على رأسي، والعواء يختلط فيه بجرش محركات الحوامات. يرتمي جسدي العاري في العتمة، على أرض أسمنتية، تلسعني برودتها. الأشداق النهمة المسعورة تنهشني، تتلمظ، متلذذة بلحمي. تلتهم ساعدًا وساقًا كاملين. أعترف برمي منشورات في «البلدة» ليلًا، تدعو للإضراب العام. اعتقدت أن القضية انتهت باعترافي، لكن كلمات «مسخ»، تنساب عبر عواء طويل «لن تخرج من الزنزانة المنفردة، إلا عندما تلتهم هذه».

ترك بوطه يضغط فوق رأسي، وأرتج بابٌ ثقيلٌ.

رأسي ثقيل، والجوع يعتصر معدتي. أبحث في بصيص ضوء، يتسرب من كوة الباب، عما سألتهمه. ألمح في الزاوية كومًا باهت المعالم، يكاد يصل إلى سقف الزنزانة. أزحف إليه بدمائي، أتلمسه بيدي الوحيدة. لا تُخفى عليّ، حتى في العتمة أعرفها؛ أوراق منشورات، مثل تلك، التي كنت أوزعها ليلًا في «البلدة». لكني لا أجد شيئًا ألتهمه. هذا «المسخ» اللعين!

يمر وقت، يرمي «المسخ» من كوة الباب قطعة بطاطا عفنة،

وكسرة خبز يابسة. يعوي «ألم تلتهمها؟».

«سألتهمها، ولن أشبع. أستطيع التهام عشر قطع بطاطا وعشرة أرغفة خبز، دفعة واحدة».

يمر وقت جديد، يرفع «المسخ» غطاء الكوة، يعوي من جديد «لا أرى أنك التهمت شيئًا!»

«بلى، قطعة البطاطا وكسرة الخبز».

«لا، المنشورات. في الزاوية».

لا أصدق ما يقول، من سيلتهم منشورات؛ ورق، وأحبار.

«في المرة القادمة، إذا لم تبدأ بالتهام المنشورات، ستُحرم من البطاطا والخبز».

يمر وقت ثقيل، وأنا أنتظر طعامي. يرفع «المسخ» غطاء الكوة، ينظر «لم تلتهم شيئًا بعد؟ لا طعام اليوم، إذًا».

أحسست أن شبحًا يحدثني من قلب كابوس. يبدو أن «المسخ» جاد، لا مجال للنقاش.

«لن تخرج من الزنزانة الانفرادية أبدًا، إلا إذا التهمت كل المنشورات. أو سنلتهمك نحن في المرة القادمة بالكامل».

وأطبقت الظلمة من جديد.

أخذت مزقة من أحد المناشير، تلوثت بدمائي. أعرف الكلمة عليها من ملمسها؛ «الديكتاتور»، قاسية، جافة. أقربها من فمي، أحاول أن أقرضها. ينكسر سنيّ. أقرر أن أبتلعها كما هي. تعلق في حلقي، أشعر بالاختناق. تصدر حشرجة مني، وأنا أتخبط أتذكر أن في زنزانتي

صنبورًا، بالكاد يسيل منه ماء. أزحف إليه مسرعًا، وأبتلع «الديكتاتور» مع الماء. يبدو أن ابتلاع مزق الكلمات مع الماء أسهل.

أمزق أحد المنشورات إلى قطع صغيرة. أتناول «الأحكام العرفية»، و«النظام الشمولي»، و«حكم العسكر»، و«توريث الحكم»، و«الأجهزة الأمنية السرية»، و«الفساد»، و«المافيات الحاكمة»، و«الطائفية»، و«العشائرية». ابتلع الكثير من الماء بعد كل كلمة، حتى تنزلق في حلقي.

لا أعرف كم من الأيام مضت في الظلمة، وأنا التهم المنشورات. لا تنتهي، أكوام وأكوام. انتفخ بطني، وتطبل، ورقدت أحجار قاسية في معدتي وأمعائي، دون أن أستطيع تفريغ شيء في حفرة المرحاض.

أستنجد بحنيني، أسافر إلى مدرسة طفولتي؛ إلى نافذة فيها، تطل على نهر، تموج حوله أشجار صفصاف. أعبرها إلى مقعد الدراسة. يلقننا المعلم «تتلقى الاشجار أشعة الشمس الرائعة، فتصنع اليخضور، وتنمو. يُصنع الورق من الأشجار. هي كائنات حية، لها أرواح، تحدثنا بها في المساءات».

تشرق الشمس الرائعة في روحي. ألتهم ورق المنشورات ـ الأشجار بلذة؛ أتناول بانسيابية «الحرية»، و«إسقاط النظام»، و«الديمقراطية» و«المجتمع المدني»، و«العدالة الإنسانية»، أبتلعها دون ماء. لم أعد أستسيغ البطاطا العفنة والخبز اليابس، التي يقدمها السجان «المسخ».

أخذت الأشجار تنمو في حقول ذاكرتي؛ في «البلدة» المعششة

في رأسي. لا أعرف متى أنام، ومتى أصحو، إلا أن الأشجار تتكاثف في داخلي. تنهض أغصانها نحو شموس الذهب عاليًا في حنيني، تتغلغل جذورها في شراييني. تغدو قدماي شجرتي حور، ويداي شجرتي جوز، في بستان، ينهض من بطني حقل تين وزيتون، يشتعل صدري صفصافًا وزيزفون، على ضفة نهر، تنبت على كتفيّ أشجار مشمش وكرز وخوخ، ومن عنقي أشجار رمان، تزنر حقلًا، تتألق عيناي بأشجار توت، تجللَ رأسي بعرائش عنب؛ نمت حقول «البلدة» في جسدي.

أصبحتُ أشجارَنا، تحيط بـ «البلدة». ومن البساتين والكروم والحقول المترامية حولها، تزحف الأشجار، وتتغلغل في الأزقة والحواري، في فسحات البيوت الريفية، في القلوب والأرواح. تنهض الأغصان باسقة نحو السماء، وتعرّش فوقها لتحميها من «البراميل المتفجرة»، التي تلقيها الحوامات.

أتسلل حنينًا إلى مدخل البلدة شجيرة كرمة، إلى حديقة أمام «فيلا»، احتفلتُ فيها مع أصدقاء، ذات حكاية. لا أرى حولي إلا الحرائق والأنقاض. أنا كرمة الندى وعناقيد الذهب، اعتدت شاعرية الصباحات والمساءات. يذهلني الدمار، يمتد ويمتد في كل الاتجاهات. كأن إلهًا عبثيًا خلق عالمًا بمثل هذه الضراوة والوحشية، في نزوة شواش وضياع، دون أي تركيز، دون أي فكرة مسبقة عما يريد تشكيله. ثم شعر بالسأم والملل من عشوائية صنعه، وما عاد يعرف كيف يتصرف به، فتركه، وانشغل بنزوة خلق جديد.

أسطح الأبنية منهارة، مُكّسرة بشقوق طولية، برزت من أحشائها أنياب دعائمها من الحديد. هبطت بعنف، فتحول كل ما

تحتها إلى أنقاض؛ الجدران والأثاث، الأصوات والذكريات. خزان مياه البلدية، كان يشمخ عاليًا بأكثر من عشرة أمتار. سقط كما هو، بعد أن أصابت القذائف دعاماته. يرقد الآن سالمًا فوق ذروة أنقاض، مثل عجوز يفكر بحطام الأيام حوله. وتمددت مئذنة مسجد طوليًا، بعد أن أصابها صاروخ في قاعدتها. مالت، وسقطت كما هي، محروسة بصدى التكبيرات. بضع درجات معلقة في الهواء، تقود إلى درب خفي نحو السماء، كانت تشكل مدخل مصطبة لصالة بيع مفروشات، هي كل ما تبقى من كل البناء. ارتمت بجانبها لافتة معدنية، ممزقة بالشظايا، لكن يمكن قراءة بقايا كلمات «مفروشات الغوطة الغربية». الدمار في كل مكان، ما يزال يحمل صدى الانفجارات، والأرض ترتج بارتدادات متتالية. تتموج الأنقاض وسع النظر بحارًا من دمار، ابتلعت في يمها نداءات الأحياء وأنين الأموات، روائح الأصوات وهسيس الألوان.

أعرش كرمة في حديقة «الفيلا» قرب جدار، وأستلقي على سقالة، يغريني خشب جوزها برائحته. أنهض من حنينها ذكريات. ينتظرنا صديقي عند مدخل الحديقة، ذات مساء، مرحبًا بنا بفرح، كعادته. كلما أنهى مرحلة بناء فيها، يدعونا بكرم، نحن أصدقاء الطفولة في «البلدة»، إلى احتفالية عشاء باذخ فيها. ندخل بصخب مرح، في «عراضة شعبية»، إلى حديقتها، المزنرة بكرنفال زهور. تتلألأ الفيلا بالأنوار فيما تتراقص مياه نوافيرها بتلاعب ألوان، تصدرها مصابيح كهربائية، مزروعة في مرج عشب أخضر. عالم مسحور. يلاقينا في طرف الحديقة موقد قرميدي بمدخنة عالية، تطقطق فيه جمرات متوهجة. وبقربه، تنهض بلاطة عريضة، تتكدس عليها شرائح لحم بوفرة، وتصطف بجانبها زجاجات النبيذ، والعرق، والبيرة. يقول

صديقي ساخرًا، كما في بداية كل سهرة «من لا يرغب أن يشرب «مُنكرًا»، فليأخذ فخذ لحم، ويقضي سهرته في القبو، و«يغض بصره» عما نفعل.

تتسلل رائحة الشواء إلى دماغي، يشتعل جوعي أكثر. أقترب من الموقد القرميدي، كي أحصل على شريحة لحم من فخذ خروف، يتم تقليبه على الجمر، وفي يدي زجاجة بيرة. شرائح اللحم في هذا اليوم مرمية بوفرة، هنا وهناك؛ على الموقد والبلاطة، على مروج الحشائش، بين الزهور، لا بل تتدلى من أغصان الشجيرات، يتصاعد منها الدخان ورائحة الشواء. كم هو كريم صديقنا اليوم. كل هذه الوفرة من اللحم!

تصيبني الرعدة فجأة، وأنا أقلب إحدى الشرائح. هذه ليست شريحة لحم، بل وما حولها ليس شرائح لحم، إنما أشلاء جثث، مازالت تحترق، والدخان يتصاعد منها. أشعر بالشواش. الموقد والبلاطة هما الشيئان الوحيدان اللذان مازالا ناهضين في هذا الدمار، فيما ترامت أشلاء الجثث في كل مكان. تشدني جثة مازالت تحترق، أشعر أن روحي ترتعش فيها. أزحف إليها شجيرة كرمة. إنها جثتي. أدثرها بوريقاتي الخضر، أبكي، ندى الفجر حداد.

سرعان ما يدفعني بعنف بوط عسكري، ينتعله «مسخ»، بملابس ميلشيات مموهة، يعوي «مازالت هناك شجيرات خضراء في هذه الحرائق؟ نريد لحم طرائد».

يلتم، هو ومجموعة من قطيع «مسوخه»، على وليمة جثتي، يعوون، ويأخذون بنهشها.

أنسل شجيرة رمان، مبتعدًا عن وليمة «المسوخ». أزحف على درب صغير، نحو بقايا بستان، أشجاره مشمش وكرز وخوخ، مزنر بشجيرات رمان.

يتصاعد من جذوع الأشجار دخان حرائق، يملأ أنينها الفضاء. ألمح فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، تجلس أرضًا، في ظلال شجيرات الرمان، وبجانبها حقيبة مدرسية. أجلس قربها، وقد غدوت صبيًا في عمرها. عيناها عسليتان، خداها يشتعلان بحمرة ورد جوري، وثيابها خضر. أقدم لها رمانة، أشقها، حباتها لؤلؤ أحمر، بلون خديها. تبتسم، وتهمس مبتسمة لي «شكرًا، نحن الأموات لا نتناول الطعام؟».

أسألها «ماذا حدث لك؟».

«سقط برميل متفجر على بيتنا، في طرف البستان. تطاير جسدي معه إلى أشلاء. لملمتها، وغدوت شجيرة كرز. انضممت إلى إخوتي وأخواتي الأشجار هنا».

«لماذا لديك حقيبة مدرسية؟».

تُخرج منها دفترًا «دونتُ حكايات الناس، الذين تناثرت جثثهم تحت قصف البراميل المتفجرة. أريد أن أزرعها في ذاكرة الريح أغنيات. وهذه صورة أمي».

«هذه صورة ربيع بستان مزهر، تتغاوى أشجاره تحت شمس صباح. لكني لا أرى أمك؟».

«أمي هي البستان. هذه صورتها يوم عرسها، ذات ربيع مزهر».

«البستان أمامنا محروق الأشجار، يتصاعد منها الأنين والدخان!».

«ألم اقل لك إن هذه صورة أمي يوم عرسها، قبل ثلاثة عشر عامًا. ها أنا شجرة كرز، في حضن أمي، التي عادت بستانًا، بعد قصف بيتنا. ستأخذ معك الحقيبة، كي تنشر الحكايات أغنيات، أليس كذلك؟».

«لكنك الآن فتاة، ولست شجرة كرز؟».

«كل يوم، في هذا الوقت، أزور قبر والدي، أعود فتاة لبضع ساعات».

وأشارت بإصبعها إلى كومتين من التراب والحجارة الصغيرة، نبتت عليهما الأشواك «تم الدفن سريعًا تحت قصف الحوامات. وضعنا هذه اللوحة الكرتونية الممزقة، المليئة بالثقوب، شاهدة للقبرين. هي ما توفر لدينا وقتها».

أقرأ «الشهيد أبو حسن الكبير، مع أخيه أبو حسن الصغير. رقم القبر «60»، 21/ 5/ 2014، داريا».

«والدك؟».

«أبو حسن الكبير. كان شابًا محبوبًا في «البلدة». يرتدي أجمل الثياب، ويتعطر بزهر الليمون. تودعه والدتي دائمًا عند الباب بقبلات. ذهب مع أصدقائه إلى حفلة عشاء، في «فيلا» يملكها صديق. لكنه لم يرجع. رمت الغربان السود على «الفيلا» برميلًا متفجرًا، فدمرتها بالكامل. لم يسلم منها إلا موقدٌ في الحديقة. في الصباح ذهبنا إلى «الفيلا»، لم نجد هناك سوى أشلاء الجثث. لكن والدتي شدها الحنين إلى قلب والدي النابض تحت الدمار. وجدنا جثته محترقة، سقطت

قذيفة قربه، ودخلت شظية في رأسه من الخلف. أحضرت والدتي قلبه، ودفنته هنا».

«وماذا حدث لعمك أبو حسن الصغير، الاسم الثاني على الشاهدة؟».

«هو ليس عمي، إنما والدي أيضًا».

«هو والد ثان لك!؟».

«كل الرجال، الذين يموتون من أجل «البلدة» هم آباؤنا. وبدلًا من أن ترتدي أمهاتنا ثياب الحداد، يعدن إلى أصولهن؛ بساتين وكرومًا وحقولًا».

«وكيف مات أبو حسن الصغير؟».

«كان في المعتقل بتهمة توزيع منشورات سرية في «البلدة». وضعه «المسوخ» في زنزانة منفردة، ولم يفرجوا عنه إلا بعد أن التهم كومًا من المنشورات. ثم رموه عاريًا إلى جانب الطريق، نصف حي، نصف ميت. كان من السهل معالجة الكدمات والجروح والكسور، لكن ماذا يمكن فعله مع الآلام التي تمزق معدته وأمعاءه، وقد أضحى تناول الطعام عذابًا لا يطاق. لم نعرف ماذا سنعالج فيه، الآلام الجسدية أم النفسية. حمل بندقية، وقاتل «عصابات الغرباء»، وهم يحاولون اجتياح «البلدة». سقطت عليه قذيفة، لم تبق منه سوى رأس وكتف وساعد متصل به. بصعوبة حصلنا على قلبه، ودفناه هنا. من السهل حديث القلب إلى القلب، أليس كذلك؟».

آه، قلباي ينبضان هنا.

«عليّ أن أعود الآن شجرة الكرز حتى لا تقلق والدتي عليّ. لا تنسأن تأخذ معك الحقيبة».

أسافر حنينًا شجرة زيتون، إلى حقل لنا في مدخل «البلدة». بنينا في طرفه، أنا وأخ وأخت لي، منزلًا من ثلاث طبقات.

تتبدى أمامي بقايا بناية، انهار الطابقان العلويان منها بالكامل، بينما صمد الأرضيّ، رغم امتلاء واجهته بفجوات واسعة، سببتها القذائف. تحطمت الأبواب والنوافذ، وتلطخت الجدران بأخداش الشظايا. رُكِنتْ أمام المدخل شاحنة عسكرية روسية ضخمة، مكشوفة الصندوق. يتراكض حولها قطاع «شبيحة» مليشيات بلباس مموه، يعلقون بنادق الكلاشينكوف على الظهر. يرمون في صندوقها بعشوائية كل ما يقع تحت أيديهم من «غنائم التعفيشات» من البناية. تتراكم بعضها فوق بعض، دون أن يعنيهم فرزها، أو تحطمها.

يبدو أن «الشبيحة» قادمون من غاب بدائي، يعيش أفراده على السلب والسطو. بدلاتهم المموهة مهترئة ممزقة، تنفلق أزرارها عن كروش ضخمة. الشعر مجعد ومشعث، تكدست فوقه طبقات من السخام والغبار، والذقون غير حليقة، منذ أسابيع، بحيث يبدون أشبه بخنازير وحشية. ينتعل أحدهم، بحجم بغل، وبغرابة مع شكله المشعث، بوطًا رياضيًا جديدًا، يحاذر أن يلوثه. بالتأكيد، وجده في «غزوته» الحالية، في أحد المنازل. يتصبب العرق من أجسادهم الوحشية، وهم يتصايحون «لنسرع، هناك منازل أخرى تنتظرنا، قبل أن يسبقنا إليها الآخرون».

تنطبع آثار الأبواط العسكرية على الأرض بأحمرَ مُتربٍ،

تقود من مدخل البناية إلى الشاحنة. هناك دماء، تسيل ببطء ولزوجة على الدرجات. الخطوات تذهب وتجيء عليها، تُشكل دروب طول وعرض، منحنيات ودورانات، مزينة بمنمنمات؛ لوحة متداخلة الأشكال، مُفعمة بوحشية بدائية، بصدى أصوات ضحايا مذعورين، يُقدمون على مذبح معبد إله حرب معاصر، لا يرتوي من الدماء.

يتأفف الخنزير- البغل، الذي يرتدي بوطًا رياضيًا أنيقًا، من تلوثه بالدماء. يناوله زميله من بين كوم ملابس «يعفشها» ثوب عروس ناصع البياض. أعرفه ثوب زوجتي، ذكرى عرس حقول مع أغنيات الريح. يمسح الحذاء به، فيزداد تلوثه بالدماء، ويتبقع بياض ثوب العروس بالدماء.

أميز بين أكوام «التعفيشات»، المرمية بعشوائية على ظهر الشاحنة، خليطًا أعرفه؛ هي أشيائي وأشياء زوجتي والأولاد؛ مولدة كهرباء، تبرز منها بقايا أسلاك مُقطعة، صحن لاقط للمحطات الفضائية، صدئ بالكامل، خزان مياه بلاستيكي مبعوج، أثاث محطم، فيه طاولة مكياج، ببقايا مرآة مكسورة، فرش ممزقة، باهتة الألوان، سجاد مهترئ، أدوات كهربائية عتيقة، من بينها مروحة بساق طويلة، جهاز تلفاز، محطم الشاشة، آنية مطبخ، مُكسّرة الصحون. وبرزت من بين هذا الركام أطراف ستائر نوافذ، وملابس نسائية، وأحذية، وألعاب أطفال، وكتب مدرسية، التفت عليها أسلاك تمديدات كهربائية وهاتفية، وارتمت فوقها أنابيب تمديدات مائية. كل شيء ملوث ومبقع بدماء أسرتي، بعد أن حضرت هذه الأشياء احتفالية قصف من السماء.

أمام مدخل البناية، ينتهي اثنان من الميليشيات للتو من فك باب

المدخل المعدني، ويلحقانه الآن بقلع إطاره من الجدران، بمطارق وأزاميل، فيما تسلق «شبيحان» آخران كومة من الأنقاض للوصول إلى «جهاز تكييف»، مزروع في أعلى جدار. عند المدخل، تحلق ثلاثة من الميليشيات حول سيارة، حولتها الشظايا إلى خردة، يفكون ما تبقى من الأجزاء الصالحة؛ المحرك، والراديتير، والديفرانس، والأبواب، والمقاعد، والإطارات. يتجاهلون جثة متفحمة فيها. ستحضر بعدهم الموجة التالية من «المعفشين»، الذين يهتمون بـ «خردة الهياكل»، من أجل صهر معادنها. يفاجئني أن الجثة فيها هي لأخي.

تتنادى أصوات «وجدنا في الطابق الأرضي، بين الأنقاض أشلاء جثث. مازالت بحالة سليمة، وفي بعضها قلوب تنبض».

تتعالى أصوات عواء «مسوخ»:

«جيد نحن جائعون، بعد كل هذا التعب».

«لنأكل بعضها، ونبيع الباقي في سوق اللحوم، بأسعار تنافس بضائع «الإرهابيين»، من الرؤوس البشرية المقطوعة، التي يبيعونها على بسطات يوم الجمعة».

«احجزوا حصتي من لحم النساء».

«إذا مازال عضوها سالمًا، دعوني أنام معها. تجربة الجنس مع الأموات تمنح نشوة فريدة».

يلتم «المسوخ» حول أشلاء جثتي، وجثث زوجتي وأولادي، يمزقون أشلاءنا، بأنيابهم الوحشية.

أسمع أزيز مناشير آلية تعلو، قريبًا مني، أنا شجرة الزيتون.

أرى مجموعة من «الشبيحة العابرين»، حطوا رحال «دراجاتهم النارية» جانب الحقل، وأخذوا يقطعون ما تبقى من أشجار زيتون، نجت من حرائق القصف. الأشجار المقطوعة تئن تحت شفرة المنشار، تنزف متألمة. يشد «الشبيحة» جثثها المقطوعة بالحبال إلى المساند الخلفية لدراجاتهم، كي يبيعوها في أسواق الحطب.

ها هم «الشبيحة» يقتربون مني، تسبقهم أزيز مناشيرهم. أفر، وقد تحولتُ إلى شجرة توت، وارفة الظلال. أمضي إلى الساحة الرئيسة ل «البلدة»، حيث كنا أولادًا، نتسلق شجرة التوت، في أثناء عودتنا من المدرسة القريبة. كانت الشجرة مشاعًا للجميع، نتناول أكباشها الممتلئة عصيرًا أحمر، وتحتها يتجمع باعة طفولتنا؛ باعة العرانيس المسلوقة، والبوشار، و«غزل البنات».

لا أحد من الأطفال، لا أحد من الباعة... يبدو أني دخلت «الجحيم».

ينفتح أمامي في الساحة مشهد عواصف نارية متأججة، تحجب السماء. تتساقط أمطارها جمرات ملتهبة، بنشيش اشتعالات. الدخان الكثيف يملأ المكان، تنشره دفقات موجات هادرة، فتختلط معالم الأشياء بأشباحها. تتوزع هنا وهناك مراجل صهر ضخمة، ترعد بضجيج غليان، يصم الآذان. إلى جانبها، تتعالى تلال خرائب معدنية، تكدسها بعشوائية رافعات شبحية ضخمة. تختلط الخرائب المعدنية بأشلاء جثث، ممزقة، ماتزال تنزف، تبتلعها المراجل جميعها. في طرف الساحة، تتبدى بقايا بنايات متداعية بفعل القصف، مثل عجوز يستند على عكازات. يصدر منها أزيز مناشير معدنية، وقرقعة محركات، وصرير حفارات. الأسقف تتمطى، وتتداعى مع جدرانها.

يتعالى من هنا وهناك لغط أشباح، بنبرات وحشية، تتوزع في اشتعالات النيران. شياطين هربت من جحيم، كنت أظنه من صنع التوهمات؛ أجساد تعلوها الأوبار الخشنة، برؤوس حيوانات مشوهة، نبتت منها قرون، وبأعضاء جنسية متضخمة. تتنفس من أفواهها لهيبات نيران، وهي تصهل بطقطقات معدنية. تتعلق على العوارض المعدنية بذيولها الطويلة الملتفة، وهي تتقافز بخفة، فتلاحقها ظلالها، متضخمة في اشتعالات النيران... ترتدي الشياطين ملابس «الغرباء المموهة».

«الشياطين» تنتزع أنابيب المياه من البيوت المدمرة، وتلاحقها تحت أرضيات الشوارع. تسحب أسلاك الكهرباء والهاتف من قلب الجدران، دون أن تهمل تلك المشدودة بين الأعمدة المعدنية الكهربائية في الشوارع. ترمي مواد شديدة الاشتعال، في بقايا الشقق، تحولها إلى فرن ناري، تشوي نيرانه الجدران والأرضيات، حتى يتم قلع «البورسلين» و«السيراميك»، سالميْن من الجدران. ثم تُسقط ما تبقى من الأسقف والدعامات، بحفارات آلية، وتنتزع قضبان الحديد منها. شبق غريب لكل ما له رنين.

وفي البيوت القديمة، من أطراف «البلدة»، التي كانت مزنرة بالياسمين والريحان، تُسحب الأعمدة القديمة، والأجران، والتوابيت، والتماثيل. ثم تتهاوى الأسقف المزينة بالنقوش والزخارف، مشتعلة بالنيران. وتختفي معها الحكايات الكنعانية، والآرامية، والإغريقية، والرومانية، التي كانت تتراكم فيها طبقات وطبقات، على مر الزمان.

لا تستثني «الشياطين» كل ما هو قائم على أعمدة وجدران؛ محلات تجارية، مشاغل المفروشات، مدارس، أبنية مؤسسات

رسمية. تتداعى جميعها في البحث عن رنين المعادن.

يتبعثر من لم يفر من سكان المنازل أشلاء جثث بين الحطام، تبرز منها الرؤوس والأطراف. بعض الأيدي مازالت تلوّح في الهواء. سرعان ما تدفعها الجرافات مع الخرائب المعدنية، وتُلقي بها الرافعات جميعًا في مراجل الصهر.

تؤجج النيران الأشجار المقطوعة من البساتين والكروم، يُضاف إليها الخشب الغالي الأثمان، من الشوح والزان والسنديان والجوز، المكدس في مخازن ورشات صناعة المفروشات، التي اشتهرت بها «داريا»؛ غابات تتحول إلى رماد، بدلَ أثاثٍ، يحمل رائحة الذكريات، ويروي الحكايات.

وفي طرف الساحة، تربض بواخر عملاقة، تُرمى في أحشائها المصهورات. ما إن تتضخم بها، وتكاد أن تتقيأها، حتى تزأر مداخنها بوحشية دخانًا أسود. وتشق طريقها ببطء في بحر متلاطم الأنقاض، وهي تطلق بوق التنبيه الهادر. تناور لإيجاد ممرات بين الركام، كي تخرج من «البلدة»، وتمضي بعيدًا إلى مكبات الصهر الضخمة في جحيم أعلى؛ في صحراء نيران دون نهاية.

في جنون الدمار والركام، وعواصف الضجيج والدخان، تجلس مجموعة من «المسوخ» قرب بقايا بحرة من مرمر، تغلي فيها مصهورات، وتتراقص منها ألسنة نيران. يرتدون الملابس المموهة، التي تعلو سترها النجوم والأوسمة المغبرة. يسترخون على أرائك مخملية فاخرة، تزين تيجانها الزخارف والنقوش، ونحتت مقابضها ومساندها من العاج، محفورة على أشكال حيوانات ونباتات، تروي

الحكايات القديمة لـ «البلدة». كان يتغاوى حرفيو «الغوطة الغربية» بها، في تنافسهم مع أمثالهم من «الغوطة الشرقية»، على صقل الحكايات، التي تشعل الحياة في الأخشاب. لكنها أصبحت الآن شبيهة بالأنقاض؛ تمزق مخملها الفاخر، وتلفع بطبقات سميكة من التراب والسواد، وتهشمت نقوشها وزخارفها، وتحطم عاجها.

يشرف «مسوخ» النجوم والأوسمة على جمع «الغنائم»، وقد اصطفت أمامهم، على مصطبة البحرة، كؤوس «المتة»، بمصاصات أحضروها من «قراهم» البعيدة في الجبال. يستمتعون بانتصارهم المدوي على «الأشباح». تعلو ثرثرتهم.

«لكن أين هي خوابي الذهب المطمورة، التي يروي عنها عجائز «البلدة» الممسوسون بحكايات؟ لم نجد منها شيئًا حتى الآن».

«عندما ننتهي من جمع المعادن الصدئة، سننقب الأراضي عميقًا، وصولًا إلى سراديب «حكايات العجائز»».

«لننته من هذه الساحة، وننتقل إلى مكان آخر. وعندما نغادر، فلنحرق هذه الأرائك التي نجلس عليها، يبدو أن خشبها جيد، تتأجج به النيران جيدًا. ولتُلحق بها شجرة التوت هذه، لماذا لم تقطعوها حتى الآن؟».

«غريب، لم نرها قبل الآن».

ترتعد أغصاني، وترتجف أوراقي، تغلي الدماء في نسغي.

أتحول إلى شجيرة ياسمين. أتلفع بغصيناتي، وأمضي باحثًا عن سور حديقة بيتي، كي أعرّش عليه. هناك، حيث أسترخي بدلال،

تحت ذهب شمس النهار، أنشر عبق زهيراتي للعابرين مويجات. أتغاوى مع ياسمينات حارتنا، كي نشّد الجدات إلى جمع زهيراتنا قبضات مفتوحة، تستلقي منثورة على بلاطات النوافذ.

أتعرف على مدخل حارتنا من لافتة محطمة، مثقوبة بالشظايا، مازالت معلقة من طرفها على بقايا عمود أسمنتي، متأكل بالشظايا، هو كل ما تبقى من «صيدلية السعادة»، التي يمتلكها زوج أختي. تداعت أنقاضًا مع الأبنية حولها. ألتقي بقطعة من بقايا سور حديقتي. أعرفها، مازالت صامدة على حجر منه «حرية»، خطتها يد «منتفض عابر»، فيما اختفت بقية الكلمات مع أنقاضه. أرتمي هنا منهكة، لا جدار أُعرّش عليه.

تداعى الطابق الأرضي من البيت، واختفى، إنما ما زالت آثار جنازير دبابات، اخترقت جدرانه، وطحنت حجارتها، مرتسمة في المكان. أما الطابق العلوي، فلم يسقط، بقي معلقًا في الهواء، دون أعمدة، دون درج. جدرانه متشحة من الخارج بتمزقات، خطتها زخات الرصاص وحواف الشظايا. بدا فارغًا بالكامل، «مُعفشًا» من كافة محتوياته، حتى من أبوابه، ونوافذه، وتجهيزاته الصحية، وبلاطه. لم يبق فيه صنبور ماء أو مصباح. لكن المفروشات الفاخرة، التي دفعت ثمنها غاليًا بالتقسيط، على مدى أشهر طويلة، مازالت موجودة، إنما ليس في مكانها. أصبحت مكدسة حطامًا عند مدخلي الشرفتين، واختلطت بأكياس الرمل الممزقة. تحولت إلى متاريس، يختفي القناصة خلفها، مستندين براحة إلى أرضية مخملية طرية، وهم ينتزعون برصاصاتهم حياة العابرين. فهمت الآن لماذا تركت الدبابات الطابق العلوي ناهضًا.

أما مكتبتي، فقد تحولت إلى رماد في زوايا الشقة. كانت تضم كتبي العربية الثمينة والنادرة، جمعتها عبر سنين حياتي، منذ أن كنت أشتري مجلات طفولتي. ثم أضفت إليها روايات ودواوين شعر بالفرنسية، مع دراستي الجامعية. وعندما رجعت من بولونيا، حاملًا شهادتي العليا، ضممت إليها محتوى صناديق ضخمة من الكتب الفنية، أحضرتها معي؛ ألبومات صور فوتوغرافية، ومجلدات مصورة، عن تاريخ الفنون التشكيلية والسينما والمسرح. من يشتري، في هذه «الغزوات» الكتب من في «أسواق التعفيش»؟ إنما إشعالها بورقها الثقيل مفيد للقناصة، يتدفؤون عليها أيام البرد، وفي غلي أباريق الماء من أجل مشروب «المتة».

جنازير الدبابات طحنت الإسمنت، لكنها عاجزة أمام صدى الحكايات، التي بقيت تحوم في المكان.

نتكوم معًا، في غرفة داخلية من الطابق الأرضي، أكثر من أربعين شخصًا من أفراد العائلة والأقارب، منهم ثلاثة إخوة وأختان وأولادهم، ومعنا عمتي «سيدة الحقول». رسم الزمن على وجهها أخاديد «حكايات البلدة». انحشرنا هناك خوفًا من شظايا انفجارات القذائف، التي يمكن أن تسقط في الشارع، وتتطاير إلينا عبر نوافذ الغرف الخارجية. لا أرى في الغرفة سوى رؤوس مزروعة بكثافة، كما في حقل، وقد اختفت الأجساد. ربما نأتي هكذاً إلى الحياة، ثم تنمو الأجساد في شمس الحقول. وكان ذلك مساءً، من يوم جمعةٍ، في آب عام 2012، قدموا إلى شقتي، الواقعة في مركز «البلدة»، المفترض أنه منطقة آمنة نسبيًا، بوجود المؤسسات الرسمية، فلا ينالها القصف.

فر الجميع من منازلهم، الواقعة على أطراف «البلدة»، حيث توارى «المنتفضون» في الحقول. جلسنا مترقبين، نسمع من بعيد أصوات زخات الرصاص، وانفجارات قذائف الهاون، والبراميل التي ترميها الحوامات.

تنقطع الكهرباء واتصالات الهواتف الأرضية والمحمولة، تغلق المحلات التجارية أبوابها، تصبح الشوارع مقفرة من المارة، والكلاب والقطط. أشباح الأهالي تتحرك بحذر وراء ستائر النوافذ، تحاول استطلاع ما يحدث حولها، دون فائدة.

في الغرفة، يرتسم القلق على وجوه الرجال، والذعر على وجوه النسوة والأطفال، فيما لا تنفك عمتي، سليلة حقول «البلدة»، عن التمتمة. تشرد بعيدًا بنظراتها، وهي تعد شيئًا ما على أصابعها، دون نهاية. أسخر منها «عمتي، ماذا تفعلين؟ إلى أين تسافرين، ونحن في أجواء الموت؟».

تزجرني بنظرة مؤنبة، وتستمر في سفرها شاردة، دون أن تتوقف تمتماتها.

أقبل المساء، نسينا أننا لم نتناول طعامًا منذ الصباح، في هذا الذعر الذي نعيشه. على النسوة تحضير طعام ما، لهذا الجمع الهائل من الجياع، الذي سيلتهم الأخضر واليابس. من حسن الحظ، لدي مؤونة مخزنة من «الكشك»، في خابية صغيرة؛ طحين من مجفف البرغل واللبن المخمريّن، «طعام الفقراء»، عندما لا يجدون شيئًا في المنزل يأكلونه. وبإشراف أختي الكبيرة، زوجة الصيدلاني، نطبخها مع البطاطا المفرومة، ثم نسكبها فوق كوم من كسرات خبز يابسة. أحفظ

الكسرات من بقايا الوجبات للأيام الصعبة، في أكياس قماشية رقيقة، معلقة على الجدران، حتى لا ينالها العفن؛ عادة تعلمتها من والدتي، عندما كنا نعيش في بيت الطفولة. خمسة قدور كبيرة، توزعت في الغرفة، دون أن أدري، من أين نبتت للرؤوس أيدي لتناول الطعام. غطت أصوات التلمظ على أزيز الرصاص وانفجارات القذائف، التي نسمعها من بعيد.

تدبرت الطعام لهذا اليوم، لكن ماذا عن بقية الأيام، إذا ما استمر القصف، وبقيت المحال التجارية مغلقة؟

ما يزيد القلق هو انقطاع الكهرباء والاتصالات. تصبح الأخبار عما يدور في «البلدة» شبه نادرة، تقتصر على ما نتداوله عبر النوافذ مع الجيران. حكايات متناقضة، مشوشة، غير مؤكدة، تتوارد عن هاربين من أحياء مجاورة، عن مداهمات أمنية، وحدوث اعتقالات عشوائية، وإعدامات ميدانية لأشخاص، حسب الأسماء، ثم لعائلات بأكملها. يحضر زوج أختي الصيدلاني لدقائق إلينا، يخبرنا عن كثرة المصابين من أهالي «البلدة»، وأن الصيدلية قد فرغت رفوفها من الأدوية، لأجل الإسعافات الأولية، في مشافي ميدانية قريبة، أقامها «المنتفضون» سريعًا. يطمئن علينا، ويمضي سريعًا لمساعدة المصابين. توتري يشتد من فكرة اقتحام «الجنود» لمنطقتنا، فماذا سنفعل عندئذ بالأطفال والنساء.

أتذكر أن لديّ مولدة كهرباء صغيرة قديمة، مرمية على السقيفة، بين خرائب الأشياء. أقرر استعادتها ومحاولة تشغيلها، لمتابعة الأخبار من المحطات الفضائية التلفزيونية. لكن تبين عدم وجود بنزين لها في

البيت، فمن كان يفكر بقدوم مثل هذه الأيام الصعبة. أستعين بزيت قلي عتيق، مستهلك من كثرة الاستخدام، بدلًا من البنزين. لحسن الحظ، زأرت المولدة أخيرًا، ووصلنا الكهرباء إلى جهاز التلفزيون.

محطاتنا «الوطنية الرسمية» تعرض جميعها أفلام رسوم متحركة قديمة، بالأسود والأبيض؛ «توم وجيري»، و«باباي»، و«ميكي ماوس». غريب، ليست هي الأفلام التي كنت أشاهدها في طفولتي. ترتدي شخصياتها البدلات المموهة للجنود، ولم تعد تثير الضحك. أما القنوات «المعادية»، فتبث «أخبارًا عاجلة» باستمرار، دون صور أو أي تفاصيل، عن قصف «البلدة»، من قبل «جيش النظام»، ومن ثم اقتحامها له، مما زادنا تشويشًا وقلقًا. ثم تعطلت المولدة، سدت بقايا الطعام في الزيت ثقوبها، فانقطعت الكهرباء، ومعها الأخبار الشحيحة، وبتنا في عتمة كاملة. اختفى الجميع حولي في العتمة، لم أعد أرى أحدًا.

سقطت قذيفة مفاجئة في الشارع، منذ يومين. لا أعرف أين بالضبط، إذ لا أحد يجرؤ على الخروج. أتوقع قرب بناية في صدر الشارع، تقع فيها شقة خالي، التي غادرها. أعطاني مفتاحها، كي أُعنى بها، في حال مغادرته لها، إذا ما زادت وتيرة القصف.

لم أستطع النوم طوال الليل من شدة التوتر والقلق، مما تبدى فيَّ رغبة مخيفة بالتدخين؛ سيجارة وراء أخرى، يلمع بصيصها في الظلام. صوت أختي الكبيرة يعنفني، دون أن أراها، تطلب مني التوقف عن التدخين. تمتمات عمتي «سيدة الحقول» تلاحقني، وقد تحولت إلى تراتيل قديمة، كانت تنشدها جدتي «سليلة الجبال» في حكاياتها،

وتزرعها في الأمسيات. تناجي عمتي «أرواح الحقول»، كي تحمينا من الأشرار، دون أن أعرف إن كانت مازالت تعد على أصابعها في العتمة.

تنكشف عتمة الليل في غبش الصباح، والجميع نيام. لا أراهم، لا أسمع لهم صوتًا. أفكر بتأمين الطعام لهذا اليوم. أمضي إلى سور المنزل، أتلمس قطرات الندى، المتشكلة على وريقات الياسمينة، أتنسم رائحة زهيراتها الصباحية. الشوارع مقفرة، والمحال التجارية مغلقة، على غير عادة صباحاتنا. أتشجع على التسلل إلى شقة خالي، كي «أسط و» على ما أجد من طعام في مطبخه، من أجل الأفواه الجائعة لديّ. زوجة خالي امرأة مدبرة، تحتفظ دائمًا بـ «مؤونة» جيدة. تمتلئ ثلاجتها أيضًا بأنواع مختلفة من الجبن، الذي «تعشقه». لا تترك ماركة في السوق إلا وتشتريها بكميات كبيرة، رغم تذمر خالي. تطعمني منها متفاخرة، كلما أزورهما. أستطعم جبنة فرنسية معتقة، لها طعم عفني مكثف محبب، تقدمها لي زوجة خالي مع كأس نبيذ.

رائحة عفن الجبن منتشرة في الشقة. هل اشترت امرأة خالي كمية كبيرة منها، وتركتها مكشوفة في المطبخ، قبل مغادرتها. ضوء الصباح الشحيح يتسلل من فجوة في الجدار، كأن القذيفة، التي سقطت منذ يومين، اخترقته، وتركت الشقة في دمار. أتعثر بكتلة كبيرة، مرمية على الأرض، تفوح منها رائحة الجبنة العفنة. غريب، هذا جسد، بل جثة تفوح منها رائحة العفن؛ جثة خالي، وغير بعيد عنها جثث أفراد عائلته. كنت أظنهم قد فروا من «البلدة». أرتعد من الرعب، لا أعرف بما أتصرف. أصوات انفجارات القذائف وإطلاق الرشاشات الثقيلة تقترب من شارعنا أكثر فأكثر. أغادر الشقة مسرعًا، وقد رميت كيس

طعام على ظهري. أعود متخفيًا في ظلال المنازل.

تسقط قذيفة غير بعيد عني، يرتج كل ما في الشارع حولي. أنبطح على الأرض مذعورًا، وأسرع زاحفًا إلى سور منزلي، أحتمي خلفه. أتمدد تحت الياسمينة، أنظر حولي، علّي أفهم شيئًا مما يحدث. هدأت أصوات الانفجارات، وران صمت ثقيل مريب في الأجواء، تتقطعه من وقت لآخر أزيز زخات رصاص كثيفة مفاجئة.

بالكاد تطل رؤوس بعض الجيران من النوافذ، يتساءل أحدهم بصوت خفيض «هل من الممكن الفرار من «البلدة» الآن؟».

يأتي جواب من نافذة ما «البلدة محاصرة، والطرق مغلقة. القناصة منتشرون على أسطحة المنازل، ويُقال إن الجثث تملأ الشوارع، لا يستطيع أحد انتشالها».

يبدو الهدوء المريب صمتًا، يسبق «انفجار العاصفة»، إذ أسمع صرير جنازير دبابة. ألمحها من طرف السور، وهي تتقدم ببطء من رأس الشارع. يحيط بها جنود بلباسهم المموه، ويعتمرون خوذهم. تطلق الدبابة قذيفة، تنفجر في البناية، الواقعة في صدر الشارع، الآن تشتعل النيران. مع تقدمهم، يطلق الجنود الرصاص على أي خيال، يلوح لهم، حتى خلف ستائر النوافذ.

أزحف إلى الشقة، وأنا مذعور، أجرجر كيس الطعام. أنسل إليها، مغلقًا الباب ورائي مسرعًا. أفكر أنه ينبغي تهدئة النساء والأولاد المذعورين، على صوت انفجار القذيفة، رغم أني لا أسمع عويلهم. لماذا هم هادئون، صامتون!؟

يتحطم الباب ورائي بعنف، ويتدافع عبره عشرات الجنود، وهم يصرخون بوحشية. أراهم يرتدون الملابس المموهة، والخوذ على رؤوسهم، وبنادقهم رُكبت عليها الحراب. أنهض بهدوء لتهدئتهم، رافعًا ساعديّ في الهواء بإشارة الاستسلام، وأنا أقول «نحن هنا مدنيون مسالمون، لدينا نساء وأطفال».

ليس للجنود وجوه، ولا رؤوس؛ مجرد فراغ ثقيل تحت الخوذ المعدنية، أقرب إلى هاوية مظلمة دون قرار، فراغ أيضًا تحت البذلات المموهة، التي تبدو رغم ذلك ثقيلة بامتلاء. تحمل البنادق، وتتحرك بأبواط عسكرية قاسية، متربة. ورغم الفراغ الخاوي، يصدر صراخهم الوحشي من عمق صحراء موحشة، فارغة إلا من الكثبان والصدى. مع من أتحدث إذًا!؟

سرعان ما ينهال أحدهم بأخمص بندقيته على رأسي ووجهي، أسقط أرضًا، مضرجًا بالدماء. لم أعد أرى سوى أحمر يسيل على عينيّ. يطلق الجنود النيران في كل الاتجاهات؛ صليل زخات رصاص لا تتوقف. يضيع صوتي في هذا الجنون، وأنا أصرخ «الأطفال، النساء، إخوتي وأخواتي، أقاربي، عمتي!».

امتلأت الغرفة بغمامة دخان رمادية، لاذعة الرائحة. تحول أحمر الدماء في عينيّ إلى رمادي. تنقشع الغمامة رويدًا رويدًا، بعد توقف احتفالية الرصاص، إلا أني لا أشاهد جثث أهلي. أين الجثث؟ لا أشاهد سوى الجنود يقلبون الأثاث بعنف، ويحطمون ما يصادفونه أمامهم من خزفيات وأوانٍ زجاجية، وهم يصرخون «أين السيوف والرماح؟ أين قدور الزيت المغلي، التي تلقيها المنجنيقات على معسكراتنا».

منذ انقطاع كهرباء المولدة، البارحة، لم أعد أرى أحدًا من جمع أهلي الكبير في الغرفة، فقط كنت أسمع صوت أختي الكبيرة تعنفني، وتراتيل عمتي السحرية. إلى أين أخذتهم عمتي بتمائمها، وتركتني وحيدًا؟

تدفعني بعنف بذلة جندي بفوهة بندقيتها إلى الشارع، وهو يصرخ بي من فراغ خوذته «يا حيوان»، مع أن اسمي «محمد»، في البطاقة الشخصية التي أعطيته إياها. ما إن أطلّ من الباب، حتى يتراكض نحوي شابان، في سترة مموهة، الأول يحمل على كتفه كاميرا تصوير تلفزيونية، والثاني ميكروفونًا، يبربر فيه «نحن معكم أيها المشاهدون في بث مباشر من هجوم على وكر للإرهابيين، تم فيه اكتشاف مخزن للسيوف والسواطير، إلى جانب قطع منجنيقات، كان يتم تركيبها من قبل خبراء صحراويين، قادمين من العصور الوسطى. كما تم إلقاء القبض فيه على عدد من الانتحاريين، المتنكرين بملابس أوروبية أنيقة، دون الثوب الأفغاني، ودون لحية طويلة مشعثة وحف شوارب، حتى يستطيعوا التسلل بيننا».

يُقرّب الشاب الميكروفون مني، يسألني «كم من الرؤوس تقطعها في اليوم الواحد بسيفك، وتبيعها على بسطات يوم الجمعة، أمام المسجد؟ كم طفلًا تخطفه، كل صباح، وتسلقه طعامًا لأصدقائك الإرهابيين؟ كم سبية تغتصب في الليلة الواحدة؟».

أجد نفسي أمام جدار، أقف مع جيران من الحارة، بينهم أطفال وعجائز. البنادق موجهة إلينا، وأيدينا مرفوعة عاليًا. مبلبل الذهن، مشوشًا، أتساءل باستمرار، متمتمًا «أين اختفى أهلي، إلى أين

مضت بهم عمتي!». يجول أمامنا «مسخ» عملاق، بحجم فيل، تُزين كتفي بذلته المموهة نجوم رصاصية صدئة، وصدرها أوسمة صفراء شاحبة، يتفتف شتائم دون توقف. يحمل قائمة بأسماء مطلوبين، يقارن بها بطاقاتنا الشخصية معها. يقرأ بصوت عالٍ اسم «حيوان».

أصمتُ.

يذهب «المسخ» إلى «مُخبر» ملثم، يجلس في سيارة عسكرية صغيرة، مركونة في زاوية الشارع. يستشيره بأسماء القائمة. يبدو «المخبر» مترددًا. يمزق «المسخ» القائمة بنزق، ويطلق رصاص مسدسه عليه، فيرديه قتيلًا. ثم يعود إلينا.

يصل الذعر لديّ إلى أقصاه، وأنا أسمع «المسخ» يعطي أمرًا بإطلاق النار علينا. يفور دمي، وأتعرق بشدة. وفيما ينهال علينا الرصاص بغزارة شديدة، بقيت أتساءل «إلى أين مضت عمتي بالأهل؟». أسقط أرضًا، يمتلئ جسدي بالثقوب، أنزف منها دمًا غزيرًا. تتساقط فوقي أجساد أخرى، يصبح ما حولي ظلامًا. «لماذا لم تأخذيني معكم، يا عمتي؟».

يختفي الجنود من الشارع. نبقى جثثًا وحيدة.

أسمع صوتًا ينادي من بعيد في مكبر صوت «على كافة الجثث المنتشرة في شوارع البلدة التجمع في ساحة «البلدية»، مع بطاقتها الشخصية، كي يتم التعرف عليها، ودفنها قبل أن يحل الظلام، وإلا فسيصيبها التعفن، وتأكلها الجرذان».

تنهض جثثنا، يتكئ عضها على الآخر، ونمضي بتثاقل إلى

ساحة «البلدية»، كي يتم دفننا. لا أفهم ما يحدث لنا، لماذا علينا أن نموت باكرًا، ومازالت حكاياتنا في بدايتها.

أذبلُ شجيرة الياسمين، على بقايا سور المنزل المنهار.

ينتابني قلق عميق على خالتي «سيدة الزهور». تطل شرفتها، في الطابق الثاني، على «سوق البلدة الكبيرة». أغدو أصيص زهيرات أقحوان بيض، أستقر على مصطبة، تنهض على عمدان رخام أبيض متألق، عند مطلع الصباحات. هناك، تتفتح أقحواناتي، بين صفوف من النباتات المزهرة؛ الورد الجوري، والياسمين، والبنفسج، والأقحوان، والنرجس، والسوسن، والمنثور، والزنبق، وفم السمكة، والقرنفل. نستيقظ كل يوم على مداعبة قبلات الفجر، ونشتعل انتشاءً قطرات ندى. كان لدى زوج «سيدتنا» أشهر مشتل لنباتات الزينة في «الغوطة الغربية»، يقع في طرف «البلدة»، لا تهدأ فيه حركة الزبائن. من هذا المشتل، تختارنا الأجمل لشرفتها.

لم تنفك «سيدتنا» عن رعايتنا، نحن الزهور، وأطفالها الثلاثة، والدموع لا تفارق وجنتيها. سافر زوجها منذ أشهر إلى السماء، ذات برميل متفجر، سقط على مشتله. وبدلًا من أن ترتدي أسود الحداد، أشعلت زهيراتها بألوان الفرح، كي تمنح الأمل لأطفال من سافر أباؤهم إلى السماء.

أرد على الاتصال الأخير لابن أختي على الهاتف المحمول «أنا وأطفالي الثلاثة هنا أيضًا بأمان، قرب السوق، بعيدين عن أطراف «البلدة». لن تسقط القذائف عندنا، فلا داع لقدومنا إلى منزلك».

وانقطعت الاتصالات.

أنا «سيدة الزهور»، أشاهد من خلف ستارة نافذة الشرفة سقوط القذائف على «السوق الكبيرة»، ترتج شقتي بارتدادات متتالية. حدث هذا بشكل مفاجئ، في ذروة ساعات الشراء عند الصباح. يتراكض الباعة والمشترون مذعورين في جميع الاتجاهات. لا أصدق ما يحدث أمامي؛ أراهم يتطايرون، ثم يتساقطون مع مطر الشظايا، مضرجين بدمائهم، بين أكوام الفواكه والخضار المتناثرة. يتساقطون، ولا ينهضون. تختلج أجسادهم على الأرض مثل حيوان ذبيح، وتلوّح أيديهم في الهواء نداءات مستنجدة، وقد فقدوا القدرة على الصراخ. أعرفهم، أراهم كل يوم، يلقون عليّ تحية الصباح، وأنا أسقي الزهور على الشرفة.

أتجرأ على القفز إلى الدرج، أصل إلى مخرج البناية، كي أنقذ أحدًا. يسبقني جيران من البنايات المجاورة للمساعدة أيضًا. أتوقف مذعورة، وأنا أرى الذين سبقوني إلى الشارع يتساقطون أيضًا، وأيديهم تلوّح مستغيثة. لم ننتبه إلى القناصين الرابضين على أسطح البنايات، يتصيدون كل ما يتحرك في الشارع. وهاهم يطلقون الرصاص الآن على الأبواب والنوافذ. أسمع صراخ أولادي مذعورين في الشقة، أرتد إليهم، أضمهم إلى صدري. أبكي معهم بهستيرية، وأنا ألمح الأجساد المختلجة في الشارع، عبر طرف النافذة، تسقط تلويحات أيديها المتعبة، وتخمد فيها الحياة.

تتقدم ثلاث دبابات مزمجرة في الشارع، بين أكوام الفواكه والخضار المتناثرة أرضًا. يرافقها جنود، يطلقون الرصاص على الأجساد المختلجة في الشارع، لا يستثنون حتى الأموات. غريب، لا أرى تحت خوذهم سوى عتمة عميقة. هل هم دون وجوه؟ ودون أجساد أيضًا؟

ألمح شابين صغيرين، يستلقيان قرب جدار، لم يسعفهما الوقت للفرار. يلطخان ملابسهما بدماء جثة، مدعيّن الموت. تدوسهم الأبواط العسكرية الثقيلة القاسية، لا ينبسان بأي حركة. يتجاوزهم الجنود، ويستمرون بالتقدم نحو بنايتنا، دون التوقف عن إطلاق النيران. أرى الشابين ينهضان حمامتين، ترفرفان بخفة، وتختفيان في غيمة عابرة. ينجوان. وأنا سأنجو أيضًا مثلهما مع أولادي الثلاثة.

أسرع بدفع أولادي المذعورين إلى نافذة، تطل على الحديقة الخلفية، أرميهم منها، الواحد تلو الآخر. يصل الأولاد إلى أرضية الحديقة أرانب، ويتقافزون هاربين. أرمي نفسي وراءهم، في اللحظة التي يدخل فيها الجنود الشقة، وهم يطلقون النيران والصيحات الوحشية. أركض وراء الأرانب حافية القدمين، نحو البساتين الكثيفة، التي أعرفها جيدًا، متسترين بالسياج. أتعثر بجثث، أنهض، لا أتوقف، أنا والأرانب، حتى نصل إلى مشتلنا. أجد زوجي ينتظرنا عند طرف سوره، يضمنا بين ذراعيه، وتلفنا غمامة مسائية، مشبعة برطوبة الحنين، ونصعد إلى السماء.

أغدو الآن شجرة الصنوبر، في ساحة «البلدية»، المُعمرة منذ آلاف السنين. أنا شجرة «حكاية» من ذاكرة غابات مطيرة، كانت تغطي البلاد، ذات حلم بعيد؛ نزولًا من قمم الجبال، عند هبوط المساءات، حتى سهول «البلدة»، عند مطلع الصباحات. أعلو فوق المنازل والساحات، فوق الشوارع والأزقة والحواري، فوق الدروب الصغيرة، المفضية إلى البساتين والحقول والكروم والمزارع. رأيت من هذا العلو ما حل بـ«البلدة»، في «مجزرة «السبت الأسود». أرقب،

الآن، قدوم الجثث من مختلف الحارات. تأتي، وتستلقي في الساحة بصفوف طولية، بعضها قرب بعض.

الدمار شامل في البيوت والمحال التجارية والمؤسسات الرسمية، الحرائق ماتزال مشتعلة في الكثير منها. تتصاعد النيران أيضًا من السيارات، التي حاول ركابها الفرار بها، وفاجأتهم القذائف، فانحرفت عن الطرقات لتصطدم بالأشجار، أو بواجهات المحال. عيون المحترقين فيها جاحظة، تحدق في الفراغ. تتساءل، كيف فاجأنا الموت هنا، ولماذا. تتصاعد رائحة الموت أيضًا من الجثث المترامية على الأرض، بعضها متفحم، ما يزال دخان يتسلل منها. تتناثر بينها أشلاء من أصابتهم القذائف مباشرة؛ أيد وأقدام ورؤوس، ممزقة، مهشمة، منفصلة عن أجسادها. حاول بعضهم الاختباء وراء شجرة، أو سور، أو حاجز، وأرداهم قتلى رصاص قناص، من حيث لا يعلمون. بقيت أجسادهم في أوضاعها لحظة موتهم، كأنها تعيش في الصمت مؤقتًا، وستنهض بعد قليل لتتابع سيرها. أما الحارات والأزقة، فقد امتلأت جثثًا، بثقوب كبيرة في رؤوس مهشمة، أو في صدور مفتوحة بفجوات، فقد قضت في إعدامات ميدانية مباشرة.

أنا «ابن البلدة»، سليل حكايات «شجرة الصنوبر»، أقف في الساحة، مع مجموعة من الأهالي الناجين من «مجزرة السبت الأسود»، من شهر آب عام 2012. نحاول التعرف على الجثث، من أجل توثيقها قبل الدفن. تحضر الجثث، التي استطاعت أن تلملم أشلاءها، إلى الساحة متتالية، فرادى وجماعات، تجرجر نفسها، رغم تشوهاتها، وفقدان أعضاء لها. تستلقي في صفوف طولية متتالية؛ أطفالًا ونساء

ورجالًا. يتوافدون دون انقطاع. هناك جثث عائلات بأكملها تحضر معًا؛ الأب والأم والأولاد، وأحيانًا الجد والجدة.

الجثث قادمة، ليس فقط من قلب «البلدة، وإنما أيضًا من أطرافها؛ من البساتين والحقول والكروم والمزارع. يتحدث الأهالي عن رفض بعضها الحضور. لا تثق بالبذلات المموهة، التي تتجول في «البلدة». يدفنون أنفسهم مباشرة تحت شجرة أحبوها، دون شاهدة قبر، دون اهتمام بتوثيق موتهم. هناك، في دفء الأرض، سيلتقون مع أفراد عائلاتهم وأقاربهم، الذين ماتوا معهم. والأشجار، التي سقوها دماءهم، ستحنو عليهم أكثر من الأحياء، وتروي حكاياتهم للريح، ذاكرة للأيام.

حضرت حتى الآن 750 جثة، والعدد مازال مفتوحًا للزيادة باستمرار. من الصعب التحقق من هويتها جميعًا، نتيجة تشوه الوجوه، التي ففقدت ملامحها، بالتهشيم أو الاحتراق، فأضحت أرقامًا. يمر الأهالي الناجون بين الصفوف، يحاولون التعرف بصعوبة على أفراد من عائلاتهم وأقاربهم. يغطي الرجال أنوفهم بالكوفيات، والنساء بأغطية الرؤوس، فقد فاحت بشكل كثيف رائحة الموت من الجثث. أخذت تتعفن سريعًا، في الجو الحار. يبكون بصمت، يبكون ويبكون، على كل الأموات. إلا أنه سرعان ما يعلو صوت نحيب أحدهم عاليًا، يمزق نياط القلب، عندما يكتشف جثة تخصه. يرتمي عليها، يغسلها بدموعه، ويناجيها بآهاته. تبكي امرأة بلوعة، تصر على رؤية جثة ابنها، والأهالي يمنعونها. نهشتها الكلاب الشاردة طوال الليل، قرب البساتين، ولم يبق منها سوى أضلاع ممزقة. ولولا البطاقة الشخصية، في جيب ما تبقى من بنطالها، لما تم التعرف عليها.

أمرُ مع الأهالي بين الصفوف، عليّ أتعرف على إحدى الجثث. أنظر إليها، دون أن تزعجني رائحة العفونة الصادرة منها، فلا أغطي أنفي. غريب، كل الأحياء حولي يتحسسون رائحة الموت، إلا أنا! لا، أنا لست حيًا مثلهم، وها هي جثتي ملقاة هنا بين الصفوف. أقترب منها، وأتأملها. أكاد لا أتعرف على نفسي، لولا مشاعري لذاتي. سُحِقَ نصفي السفلي بجنازير دبابة، هرسته بالكامل. تفجرت أمعائي، وتقصفت أضلاع صدري، وبرزت أطرافها خارج لحمي. تفجر رأسي بضغط الدم، وتشقق وجهي، وتشوهت ملامحه. هل حضرت وحدي زاحفًا إلى الساحة، أم أحضرتني جثثٌ معها؟ أحزن لنفسي، وأنا أتذكر المتعة الوحشية، المرتسمة على وجه سائق الدبابة، وهو يدهسني.

أغادر جثتي حزينًا، وأمشي أمام الصف التالي. غريب، أجد جثة ثانية لي؛ مثقوب رأسي، وفجوة في صدري. نالني الموت في إعدام ميداني عند جدار. تم إطلاق الرصاص عليّ من مسافة قريبة، من عدة بنادق. هناك، جثة ثالثة لي أيضًا، مهشمة بالكامل، مزروعة بالشظايا، فيما اختفت أجزاء منها. أتذكر، سقط قربي برميل متفجر، وتطايرتُ أشلاء في الهواء. وجثة رابعة، متفحمة بالكامل، دون أي ملامح، احترقت في سيارة عابرة. تعرفتُ عليها، وهي تلاحقني بنظراتها، لم تنطفئ العينان، بقي فيهما ألق.

جثة وجثة، جثث وجثث. كم مرة متُ في هذه الأيام المجنونة؟

أنا شجرة الصنوبر، أحنو على الأموات، وأراقب ما يحدث في الساحة حولي.

تتقافز امرأة فوق الجثث بطريقة استعراضية، تترنم بمقاطع من

أغان ساحلية في مديح «السيد الرئيس». ترتدي بنطال جينز، مع سترة مضادة للرصاص، وتغطي فمها وأنفها بكمامة. تحمل ميكروفونًا بيدها اليسرى، فيما يدها اليمنى مشغولة باستمرار بتسوية تسريحة شعرها الأشقر القصير. يلاحقها شاب بكاميرة تلفزيونية، يرتدي بنطال جينز وسترة عسكرية مموهة. ترافقهما مجموعة من البذلات المموهة، الفارغة من الرأس والجسد. تتحرك تحت خوذها الثقيلة، مدججة ببنادق، وحراب ملوثة بالدماء. تدعس أبواطُ البذلات الجثثَ المرمية، وهي تتنقل؛ تتفجر رؤوس، تتمزق صدور، تتهشم أطراف، وتختلط الأعضاء المهروسة بعضها مع بعض.

ترفع المذيعة الكمامة عن وجهها «رشوا حولي عطرًا باستمرار، أكاد أختنق من روائح الجثث العفنة حولي. وأنت أيها الجندي البطل، امسك لي المرآة، كي أتأكد من تسريحة شعري. سأوقع بشباكي قائد فرقة المدرعات، التي اجتاحت «البلدة»، عندما يشاهدني في بث مباشر من أرض المعركة، في تقريري التلفزيوني هذا».

يعلق شاب الكاميرة: «الآنسة «كنانة»، نحن في بث حي مباشر على الهواء. لم أنقطع، طوال الوقت، عن نقل استعداداتك اللوجستية الجسدية للحديث عن الانتصار العظيم، من موقع الحدث. أبناء الوطن يتطلعون بأفئدتهم إليك، وإلى تسريحتك الجميلة، المنقولة على جميع الشاشات الوطنية. ينتظرون بلهفة لتحدثيهم عن بطولات جيشنا العظيم».

«استعرض باستمرار بحر الجثث بلقطات عامة. وفي أثناء ذلك، خذ لقطات تفصيلية لي بينها».

«لو تم تكديس الجثث وأشلائها على شكل تلال، بصفوف متدرجة، كما في «ضيعتنا» الجبلية، وبرزت منها الأيدي والأقدام المقطوعة، وتوضعت الرؤوس المنفصلة عن أجسادها على ذروتها، على شكل هرم، لكان المشهد أكثر تعبيرية وجمالية؛ وحش ضخم متعدد الرؤوس والأطراف. لكن اليوم لم يعد لدينا الوقت، سنفعلها في مكان آخر. المخرج في الاستوديو يطلب أن تبدئي تقريرك».

«أيها المواطنون والمواطنات، نحن الآن على الهواء مباشرة، في نزهة جديدة، نتعرف فيها على ربوع منطقة أخرى من وطننا الحبيب؛ بلدة «داريا»، في «الغوطة الغربية»، قرب عاصمتنا «دمشق». جميع الملابس التي نرتديها هي من ماركة «الرئيس»، وتم خياطتها برعاية «السيد الرئيس»، القائد الملهم. نستطيع السير بها في الشوارع، والرأس مرفوع بشموخ، أمام تماثيله، التي ترتفع من جديد في الساحات والشوارع، بعد أن حطمها الغوغاء، بمؤامرة خارجية دنيئة».

«ممتاز كنانة، أكملي التقرير».

«قامت فرق النخبة من جيشنا العظيم الباسل؛ «الحرس الجمهوري»، و«الفرقة الرابعة»، والعناصر الرديفة من «ميليشيات الدفاع الوطني»، بكل فخر واعتزاز، بتطهير «داريا» الحبيبة من المجموعات الإرهابية المسلحة، التي ارتكبت الجرائم بحق أبناء المدينة الآمنين، وروعتهم، وخربت الممتلكات العامة والخاصة، بحيث لم يبق بناء واقف على قدميه، أو حتى على يديه. وتم القضاء عليهم جميعًا، قضاءً مبرمًا، بمن فيهم النساء والأطفال، الذين حملوا السلاح، دون أن نخسر بطلًا واحدًا من أبطالنا الصناديد. ها هي جثث الإرهابيين

ملقاة هنا، تحت أقدام البوط العسكري، رمزنا الوطني، الذي زرعناه بالورود، ورفعناه فوق الرؤوس. أيها المشاهدون، ما رأيكم بمعرض الجثث الواقعي هنا؟ ليس فيه أي شيء مسرحي مصطنع. أنتظر منكم التعليقات، التي سيبثها المخرج في الاستوديو كتابة، وبشكل مباشر، أسفل الشاشة. لنقترب، الآن، من الجثث، ولنستمع إلى اعترافاتها».

« آنسة كنانة، الجثث تشيح بوجوهها عنا، لا ترغب بالحديث أمام الكاميرة. سيُجلس الجنود إحدى الجثث بالقوة، في مواجهتها، وستُجرين معها المقابلة».

«أيها الإرهابي، هل لك أن تحدثنا عن رؤيتك الفلسفية، على ضوء تيارات ما بعد الحداثة، لمفهوم الحرية، التي كنتم تصرخون بها في المظاهرات، وأنتم ترقصون بالسيوف، والخناجر، والبلطات؟ لماذا تشيح بوجهك عن الكاميرة؟ لا ترغب بالإجابة؟ لأن أسيادك البدو من صحارى السبي، لم يعلموك سوى قطع الرؤوس، وعبادة الدولار».

«لننتقل إلى جثة أخرى».

«هذه جثة امرأة شبه عارية، ممزقة بالشظايا، يستلقي إلى جانبها طفل رضيع. يبدو أنه ما يزال حيًا، فهو يرضع ثديها متلمظًا. هل تقولين لي، كم مرة أغتصبك الإرهابيون الشبقون، قبل أن يقتلوك؟ هل تم ذلك فرديًا، أم جماعيًا؟ هل تصفين لنا أيضًا الأوضاع الجنسية، التي كانوا يغتصبونك فيها؟ وفي أي الأوضاع استمتعت بها أكثر؟ هل تتوقفين عن إرضاع الطفل، وتجيبيننا عن الأسئلة؟».

يبعد جندي الرضيع بقوة عن ثدي والدته الجثة. يبكي الرضيع.

تتأفف المذيعة «كم هو مزعج صراخ هذا الطفل».

يدعس الجندي ببوطه العسكري في بطن الرضيع، فيصمت إلى الأبد.

«يبدو أن المرأة لا تستطيع الإجابة، فهي مصابة بصدمة نفسية، من هول ما تعرضت له من عمليات اغتصاب متتالية».

«انظري آنسة كنانة إلى هذه الجثث المتفحمة، تزحف مبتعدة عنا حتى لا نصورها».

«وهذه جثث متفحمة أيها المشاهدون، اختفت ملامحها، فلم يعد من الممكن التعرف عليها. بالتأكيد، هي لباكستانيين وأفغان إرهابيين، قدموا لقتل الأبرياء من مواطني بلدنا الحبيب، وقد أحرقهم الإرهابيون عند مقتلهم لإخفاء هويتهم الحقيقية. بالطبع، لن يجيبوا عن أسئلتنا، فهم لا يعرفون لغتنا».

«كنانة الحلوة».

«كنانة، بدون آنسة! وأمام المشاهدين؟».

«الأجواء الوحشية للجثث حولي تثير شهوتي. أرغب بك بشدة».

«وأنا متوترة مثلك، منذ بداية البث. منظر الجثث يثيرني بجنون. وأرغب بك أيضًا».

أنا سليل حكايات «البلدة»، أتنحى جانبًا، بعد أن تعرفت على جثث كثيرة لي، مرمية بين الصفوف. أجلس تحت شجرة الصنوبر

شارد الروح. أنظر إلى الأهالي، الذين يتجولون بين صفوف الأموات، وأفكر، كم من الأحياء بينهم، وكم من الأموات. حزين أنا، لكن هل يعرف الأموات الحزن حقًا؟ هل يتذكرون الحكايات، فترتعش أرواحهم؟

يقطع تفكيري قرقعة محركات مزمجرة، تعلن وصول جرافات ضخمة. تأخذ بجرف التراب قرب الساحة، وتفتح حفرة هائلة الاتساع، عميقة الغور. ثم تدفع ركام الجثث إلى الحفرة، تهيلها مع التراب والحجارة، وترميها في لجتها. نتجمع، أنا، والأهالي الناجون من المجزرة، حول طرف الحفرة، لنودع أحباءنا. تفاجئنا الجرافات، وهي تزأر حولنا. وتقوم بدفعنا إلى الحفرة، دون أن تترك لنا فرصة الإفلات والفرار. تتعالى من الحفرة أصوات الأحياء من بين أجساد الأموات، يستنجدون، ولا مجيب. أنا بينهم، يصمني الضجيج، لا أستطيع الصراخ. أجاهد كي أبقى فوق الأجساد، لكن كلما حاولت الحركة في هذا البحر من الأموات، تتساقط فوقي أجساد جديدة، وصرخات جديدة. أشعر بالاختناق. غريب، هل أنا من الأحياء أم الأموات، حتى أرغب بالتنفس؟ وكم مرة عليّ أن أموت في هذه الحياة؟ أغرق رويدًا رويدًا في ظلمة عميقة، أتلاشى فيها... لم أعد بحاجة للهواء.

أنا شجرة الصنوبر، أرقب من الأعالي، كيف تدفع الجرافات الأموات والأحياء إلى الحفرة العميقة في الساحة. لم يبق أحد من الأهالي. الأبواط العسكرية ترقص فوق تراب الحفرة، وهم يهزجون. يريدون إخفاء أي معالم لها. ثم يغادرون ثملين بانتصاراتهم على الأحياء والأموات.

في المساء، تطفو غمامة من حكايات الحنين فوق الساحة، تحنو على الأموات والأحياء في الحفرة. تطفو الأجساد منها في الهواء؛ مئات الأجساد تطفو في هدأة المساء، تعلو أمتارًا عشرة، عشرين، خمسين، في السماء. تشكل غيمة كثيفة شفافة من الأجساد، تغطي كامل «البلدة». الغيمة تنزف دماء، تهطل دماء، تبكي دماء، على البيوت والساحات والدروب، على البساتين والحقول والكروم. ترتوي الأرض من حكايات الناس، الذين يسافرون في ذاكرة الريح والكلمات... تورق البساتين والحقول والكروم من جديد، تُورق أخضرَ، تُستعاد «الحكايات» من جديد.

الفصل الرابع

هلوسة

يلفحني وهج شمس مشتعلة بنيران، يُغرق جبيني بسيلان مسارب، ينسكب غلالات على عينيّ، تؤلماني بحرائق ملح. تنتابني رغبة مجنونة بفركهما، أكتشف أن يديّ مقيدتان بصفاد خلف ظهري. أتلوى متألمًا. لا أستطيع الفرار، قدماي أيضًا مقيدتان. أين أنا؟ كيف يحدث هذا؟

تغرق قدماي الحافيتان في لزوجة أسفلت مشتعل. أتقافز متألمًا؛ على رؤوس الأصابع، على الكعبين، على الأطراف. رائحة شواء. أترنح منهارًا. إن سقطتُ، فلن يكون بوسعي النهوض.

تضج زمجرة محرك، أسمعه قريبًا. أراها، الآن، دبابة رابضة أمامي؛ وحشًا آليًا، يتحفز للانقضاض. دفقات دخانها تُشعل الجو نتانة، أتنفسه؛ كثيف، كريه الرائحة. تتشربه شراييني عميقًا، يتسلل إلى دماغي، حارقًا، مرًا، على وشك أن يفجره، ويتشظى. تتلقفه معدتي الخاوية، فتعتصرها تشجنات أفعوانية. لا شيء أتقيؤه، إلا أحشائي اليابسة. عطش جنوني، ولساني ناشف، يابس، التصق بسقف حلقي. أختنق إلى حد النشيج.

ألمح كثبان رمال، تمتد وتمتد، على جانبي طريق؛ صحراء قاحلة، بلانهاية. لا أعرف الصحراء. أعرف التلال إلى الشمال من بلدتي، تتناثر فيها بضع شجيرات، ألجأ إليها في قيظ الظهيرة. أما هذه الصحراء اللعينة، فتبدو فارغة، إلا من كثبان الرمال، وعواصف الغبار، والخواء. تجتاحني بدفقات، تزيد اضطرام العطش في يباس أحشائي. يتشظى عقلي بالجنون.

تزأر الدبابة. ألمح على جانبيها، بين غمامات دخان أسود كثيف، أشباحًا، خيالات مبهمة، تطفو كسراب، انفصل عن حرائق الرمال. أصرخ، اختفى صوتي، والكلمات.

«أجد نفسي جانب الدبابة مع خيالات؛ رجالٌ بسحنات جافة، قاسية، صقلت سمرتنا شمس حارقة. تنضحُ عيوننا شراسة، من وراء كوفيات سود، تلّثمنا بها، تنسدل على لحى مشعثة. نرتدي أثوابًا فضفاضة، خشنة مغبرة، تصل إلى الركب، وسراويل واسعة. قادمون من صحراء ما قبل التاريخ، وحوش بدائية. نرفع، أنا وإخواني، سيوفًا محنية النصال، نلوّح بها ونحن نتراقص. النصالُ مُلطخة بالدماء، نلعقها متلذذين. نصرخ بأصوات وحشية، متنافرة، تردد الصحراء الأصداء. نهزج بطقوس موت احتفالي! لكن أين الضحية؟».

من جديد، تهدر حرائق الشمس، وتزأر الدبابة أمامي... كيف تتغير الخيالات قربها؟

«أجد نفسي مع رجال متوحشين، بشعر مجعد، مشعث مغبر، وذقون غير حليقة منذ أسابيع، قادمين من جبال جرد، موحشة. نرتدي ملابس جنود مموهة، مهترئة ممزقة. نعض بأسنان صفراء لفافات

سجائر مشتعلة، ونحتسي، بين الفينة والأخرى، جرعات خمر رديء، من زجاجات مُسخّمة بالسواد. نرفع عاليًا، بنادق، رُكِبت عليها حراب، مصقولة بحرائق الشمس، ملوثة بالدماء، وأصابعنا على الزناد. نطلق الرصاص في الهواء، ونحن نتقافز بحركات داعرة معربدة. نؤدي رقصة موت احتفالية! لكن أين الضحية؟».

تغرق قدماي العاريتان أكثر في لزوجة الاسفلت، يضج زئير الدبابة عاليًا أكثر. يذهب بي بعيدًا أتذكر.

أجثو، الآن، على حريق أرض رملية، ويداي مقيدتان خلف الظهر. مُنهار، مُستسلم، أنهكني الجوع والعطش، فيما لا تنفك جروح لسعات سوط، مزقت قميصي، حفرت أخاديد ألم عميق، في جسدي، في روحي، تنز قيحًا ودمًا. يحيط بي رجالٌ ملثمون، تنضح نظراتهم عدائية ووحشية. يتلو أحدهم، محلول اللثام، من ورقة يمسكها بيده اليسرى، رافعًا سبابة يده اليمنى في الهواء، مهددًا. لا تصل إلى سمعي سوى أصداء، يرددها خواء الصحراء. تمتد يد يمنى من خلف رأسي، تمسك مدية، تضعها أمام عنقي، فيما تقبض اليد الأخرى على شعري المجعد بشدة. يزداد زئيرُ الرجال حولي. ترفع اليد اليسرى رأسي بعنف إلى الأعلى، يلمع نصل المدية تحت الشمس، يلامس عنقي، أشعر به دافئًا، ناعمًا حادًا. ينغرز في الجلد الرقيق، وينسحب من اليسار إلى اليمين، قاطعًا الحنجرة والأوردة، تنفر دمائي.

«أقطعُ الرأس بمتعة، أفصله بالكامل عن الجسد، أرفعه عاليًا، كي يرتوي الجنون حولي، ثم أرميه بين الأقدام. أمتص الدماء من نصل المدية. يرتفع التهليل مجنونًا، ويلعلع الرصاص بغزارة».

يختلط هدير الشمس بزئير الدبابة... أتذكر.

أجد نفسي مرميًا على أرض ترابية، ويداي مقيدتان خلف ظهري، بين كتل أبواط عسكرية، غُرست في مقدماتها حدوات معدنية قاسية. تتدافع، وهي تنهال بوحشية على جسدي بالركلات. يتحطم فكي، ينزف، يمتلئ فمي دمًا. تنكسر أضلاع في صدري، تنغرز أطرافها في لحمي. أحاول الهرب، زاحفًا، منثنيًا، متقلبًا، دون جدوى. ألمحهم، جنودًا بأشعار مجعدة، وهم يعضّون على سجائرهم. يرفعون بنادقهم، وقد رُكّبت عليها الحراب. يطلقون صرخات مجنونة. وفجأة، تنهال طعنات الحراب وحشية في جسدي، تنغرس عميقًا فيه؛ طعنات متتالية متسارعة بجنون...

«أطعن الجسد المتلوي أمامي بمتعة وحشية، في الصدر، في القلب، في الرقبة، في الوجه، وتنفر الدماء. أطعن وأطعن، رغم همود الجسد».

جنازير الدبابة تُصدر، الآن، صريرًا معدنيًا، متكسرًا، تتقدم نحوي. تجرش الإسفلت تحتها، وقد تكثفت دفقات الدخان الأسود، منفلتة منها في الهواء. تختفي الصحراء، لا أرى أمامي إلا الدبابة.

ستتوقف الدبابة، بالتأكيد. «هم» يريدون، فقط، إثارة الذعر لديّ... ألا تتذكر.

تومض الذكرى في ذهني، سريعة، خاطفة، عندما اجتاح العسكر «بلدتنا»، وحولوا إحدى البنايات، المطلة على الساحة الرئيسة، إلى موقع عسكري، بعد أن طردوا قاطنيها. تربض أمامه ثلاث ناقلات جند مجنزرة.

«كنا، نحن العجائز والصغار، ممن تبقى من أهالي البلدة، نرقب بحذر، من خلف ستائر نوافذنا، ما يحدث في الساحة».

يقف ضابط، برتبة نقيب، ببذلته المموهة، على شرفة البناية، مكتف اليدين على صدره، مثل تمثالٍ معبودٍ. يعطي أمرًا «قم بنزهة على البغل في الساحة».

«أنا سائق المجنزرة، شاب في الثامنة عشرة من عمري. يسخر مني أصدقائي الجنود، يقولون إني أرعن. أقهقه. أمتطي المجنزرة، كما كنت أمتطي بغلنا، في قريتنا البعيدة، الغارقة في الجبال والنسيان. أصول وأجول بها في الساحة».

«نراه، نحن العجائز والصغار، سائق الدبابة الأرعن، من وراء الستائر. يحطم عواميد الكهرباء، تنهال أسلاكها على الأرض. لم تشتعل شررًا، فلا كهرباء في بلدتنا، منذ زمن بعيد، لم نعد نتذكرها؛ نعيش عتمة الحرب والقلوب».

«يصفق لي تمثال النقيب على الشرفة، أنا سائق الدبابة الأرعن. أصدم بحماس بلاطات النافورة، التي تزين منتصف الساحة».

«يتبعثر حطام النافورة على أرض الساحة. لم ينسفح ماء على الإسفلت. لا ماء فيها، ولا في البلدة، إلا ما تحمله لنا شاحنات الصهاريج من مياه ملوثة، مدفوعة الثمن غاليًا».

«يصفق لي رفاقي الجنود من أطراف الساحة، وهم يتقافزون أمامي، هاربين، مقهقهين حتى لا أدهسهم. أحطم واجهات بقاليات ومحال تجارية، تنكشف بضائعها».

«ونحن، الملتصقة جباهنا وأنوفنا بزجاج النوافذ، علينا أن نتعلم الذعر من الوحوش الآلية العسكرية».

«قفزتُ فارسًا من صهوة مجنزرتي، كما في أفلام الكاوبوي، التي كنت أحضرها في سينما المدينة، في طفولتي، برفقة خالي. قفزت، بعد أن جرشتُ بجنازيرها الشجر والحجر، ولطخت بدخانها الهواء والضجر».

«لم يدهس عابرًا في دربه، لأنه كان هناك منع تجول غير معلن في الشوارع. الدبابة تثير الذعر، تحطم ما حولها، لكنها لا تدهس أحدًا.

تزأر الدبابة أمامي من جديد. لن تدهسني. ها قد وصلت إلى أقصى ذعري. ألا يكفي هذا! متى ينتهي هذا الكابوس، وأصحو منه؟

لكن الجنازير تستمر بالتقدم نحوي. ألمح خيالًا على البرج، مستندًا على رشاشها، ببذلة مموهة، وشعر مجعد مشعث. لا أميز من ملامح وجهه سوى ذقنه غير الحليقة. تتقدم الجنازير نحوي أكثر. أصطدم بعينين حادتين، في وجه آخر، ملثم، يبرز من فتحة القيادة، في الأسفل. ينطلق الشرر منهما نحوي سهامًا حارقة. هو، من يقودها نحوي. هو، من قد يدهسني بالخطأ. تنهزم نظرات استعطافي أمام حجَريته. ألتفتُ إلى الخيالات، على اليمين، وعلى اليسار. أريد إخبارهم أن يديَّ وقدميَّ مقيدتان، وأن السائق قد يخطئ، ويصدمني. غريب، لماذا تبدي اللامبالاة نحوي، بل يصرخون، ويستعدون للرقص ببنادقهم، وسيوفهم، المرفوعة عاليًا في الهواء.

يواصل صرير الجنازير تقدمه، تفصله عني عدة أشبار، صرير

يطغى على صراخي المختنق، على الرعب. وأنا، نشيج دون بكاء، دون دموع. تشتعل السماء والصحراء نيرانًا، تتركاني وحيدًا، في مواجهة الدبابة. صرير، تنبعث منه رائحة غريبة؛ رائحة موت.

الصرير. يصبح لصقي. ستتوقف الجنازير الآن. ستوقفها الخيالات. لكن أين الخيالات! اختفت، مع أني أسمع جلبتها. الجنازير لا تتوقف. هذا ليس كابوسًا. عينا السائق الملثم أصبحتا قريبتين جدًا، في مواجهتي تمامًا. ستدهسني الجنازير. أتقافز بقدميّ المقيدتين. أرتعد بهلع مجنون. دمي يفور. عينا السائق الملثم تقتربان أكثر. أستدير بجسدي جانبيًا، كي أتقي الصدمة القادمة بكتفي. أفقد توازني. أهوي على مؤخرتي. تقترب الجنازير من قدميّ الحافيتين، أسحبهما نحوي، تلاحقهما. أدفع مؤخرتي بقدميّ، هاربًا منهما. لا تساعدني يداي المقيدتان. لا أبتعد. أسقط إلى الخلف، متمدداُ بالكامل على الإسفلت الملتهب. تطلق الخيالات الضاجة صرخات وحشية. يطلقون نيران بنادقهم في الهواء، في احتفالية هوس جنوني. تنفجر دمعتان من عينيّ، دون بكاء.

«أقود الدبابة على مهل، أستمتع برؤية الضحية أمامي، تتراقص مذعورة. تتلاقى العيون، نظراتي متألقة، مستمتعة، نظراته منطفئة، مستجدية. كلما أخرت الدهس، أستمتعُ بالرعب المرتسم على الوجه أمامي أكثر فأكثر».

تلمس الجنازير رؤوس أصابع قدميّ، ناعمة، ساخنة. لكنها، فجأة، تبدأ بفرمهما؛ بفرم قدميّ. لم أشعر بمثل هذا الألم المجنون في حياتي. تداهمني صورة أمي، أستنجد بها. مصطبة طينية، تظللها

شجرة جوز، وإبريق شاي على جمر ملتهب. لكن الجنازير تتقدم، تفرم رجليّ، ركبتيّ، فخذيّ. رأسي ينفجر. العالم ظلام.

«أتقدم بالدبابة فوق القدمين، تتقدم الجنازير. أرى الدماء تتدفق من الفم، الأنف، الأذنين. تتقدم الجنازير، تفرم الحوض. الأحشاء تندفع إلى الصدر، العظام تطقطق. أسحق الجمجمة. يمتلئ رأسي بالنشوة. أتوقف فوق الجسد المهروس. تعلو الصرخات الوحشية، وصليل الرصاص، يشتعل الحماس في رأسي أكثر، أقوم بدوران صغير فوقه، كي أسحقه بالكامل، وأفرمه أكثر. ثم أنسحب عنه متراجعًا؛ لحم مفروم، عظام مسحوقة، غُرست في الإسفلت اللزج الحار».

انفصل طيفٌ عن جسدي. متى انفصل؟ يطفو عاليًا. يراقب جسدي، الممزق. لا يشعر بالألم معه. تختفي الأصوات الوحشية، وصرير الجنازير. أضحت الخيالات أشباحًا مبهمة. تختفي الصحراء. يصبح الزمن ثقيلًا، بطيئًا. يتوقف.

أمي تهزني في مهد. تؤرجحني على ذراعيها. أطير عاليًا مع أرجوحة، معلقة على شجرة توت، تسترخي على غصن منها قطة، تتأمل ما حولها، وليس بعيدًا عنها ببغاء ينادينا بأسمائنا. أطير، أحلق عاليًا، فوق بحيرة بين التلال. أطفو على جبل شاهق. تنكشف السهول أمامي بعيدًا، وبعيدًا، طيفي يعلو، يحلق خارج الزمان والمكان. لكن الدمعتين مازالتا تسيلان.

الفصل الخامس

كوابيس المنفى

جسدي بلدة داريا مشتعلة بالحرائق، والنيران تتغلغل في أحشائي؛ في الشوارع والبيوت، في الحقول والكروم، في ذاكرتي والحنين. تمزقني الآلام، فأعي ذاتي؛ جسدي وبلدتي. أعاند، وأصحو من «كابوس» زحف الحرائق، قبل أن تلتهم الذكريات الخضر، وتغادرها رمادًا. أصحو، كي تبقى «الحكاية» معرّشة في روحي حنينًا، يزهو بأهازيج المطر وفرح الأمسيات، كي تعاند غربة «المنفى» وحصاره، وقد غدا فناء.

أعي، الآن، أن الحرائق «كابوس ليلي»، يعتاش من جحيم المجازر، في بلاد، ما عادت بلادًا، وأنه ينتظرني، عندما أصحو، «كابوس نهاري»، يعتاش من صقيع «المنفى»، حيث لا بلاد... لا يهم، فلتنتج «الحكاية». هنا؛ ذكريات الطفولة، تلهو في شموس الحارات، دارنا القديمة، تشتعل برائحة خبز التنور، كرم العنب، يغتسل لؤلؤه بندى الصباحات، حقل القمح، تتألق سنابله الذهبية بقيظ الظهريات. أما هناك، في «المنفى»، حيث لا «حكاية» لي، الجسد يعيش الأمان، لكن الجنون ذهب بالروح إلى أقصاه؛ غدوت ممسوسًا، متشظيًا، معطوب الذاكرة، إلا من ومضات مبهمة، تزيد الآلام... هل هي

هلوسات وحشية مجنونة، أم قوقعة افتراضية مبرمجة، لمن تم اقتلاعهم من ذاكرة البلاد، وتم رميهم في براري وحشة المنفى؟

يتسلل ضياء الصباح الشحيح إلى غرفة نومي، يوقظني مذعورًا على صرختي المدوية، غارقًا في بحيرة شواش مبهم. لكن، منذ الآن، سأتمرد، لن أصرخ. سأواجه ليلتي، وأترك «الحكاية» تتداعى إلى الحياة. أواجه بها «كابوس المنفى»، سواء أكان هلوسات، أم قوقعة افتراضية.

أنسل من فراشي. أمضي إلى الدوش، أغتسل من ذعر الليل. أنتعش قليلًا. أعود إلى غرفة النوم، كي أرتدي ملابسي، قبل أن أمضي إلى الشرفة مع كأس الشاي.

كأني ألمح طيفًا في مرآة غرفة النوم الكبيرة. تواجهني كل يوم فارغة، عندما أقف أمامها، سوى من تشققات. ماذا يحدث اليوم، لا أصدق؟ هل هو انعكاس صورتي فيها، أم هي صورة شخص آخر، تسلل إليها، في غفلة مني؟ هل سأتعرف على نفسي، أخيرًا؟

أتمعن في المرآة، أرى انعكاس صورة رجل في الأربعينيات من عمره، دون تجاعيد في الوجه. ليس كما أظن نفسي، في الستينيات! لكن، هل يبتسم لي، أم أنا، من يبتسم لنفسي؟ أسأل «هل أنتَ أنا؟».

يجيبني «نعم، أنا أنتَ».

«من أنا، من أنتَ، إذًا؟».

«أنا محمد، أحد رواة «حكاية» داريا، التي تأتيك في الومضات».

أخيرًا، عرفتُ نفسي؛ عرفتُ تقاطيع جسدي، والمكان الذي قدمت منه، اسمي ولغتي. ستتداعى الذكريات، الآن، وأعرف ماضيّ. أقول «آه، أنا محمد، ذاكرة «دارنا» الريفية، في داريا. عشتُ مأساة التهجير، بعد أن غادرتُها هاربًا من القصف، بمن تبقى من العائلة، أطفالًا ونساء».

تجيبني الصورة في المرآة «نعم، هو أنت. لكنك مازلتَ تعيش مأساة التهجير مع العائلة حتى الآن، ونجوتَ من محاولة اختطافك من قبل شبيحة ميليشيات».

«لكني أنا هنا، وحيد، دون عائلة، فكيف مازلت أعيشُ هناك».

تبتسم الصورة في المرآة، لا تجيب. أفركُ عينيّ، كي أتأكد أني لا أعيش استيهامًا جديدًا. أفتحهما، أنظر في المرآة. ماذا يحدث؟ أشاهد صورة رجل آخر، في الخمسينيات، أشيب الشعر. هل لي صورتان في المرآة؟ هل أنا واحد، أم اثنان؟

أسأل متشجعًا «من أنتَ؟».

تجيبني الصورة « أنا أنتَ. أنا حسن، الأخ الأكبر لمحمد».

«آه، أنت من كان يعشق صيد الطيور في حقول داريا، ويطلق النار على الأفاعي، في الدور القديمة».

«كان هذا في مرحلة شبابك أنتَ. لكني أقيم، أنا، الآن، في العاصمة دمشق؛ المدينة، التي استباحها الغرباء».

«لكن مادمتَ أنتَ أنا، فكيف أعيش هنا، في الوقت نفسه؟».

تبتسم الصورة أيضًا، لا تجيب.

لماذا أفرك عينيّ الآن، فها هي الصور تتالى في المرآة. تتحدث جميعها بلغتي:

«أنا أنتَ. أنا خليل، أشهر نجار موبيليا في داريا، ومقاتل في «الجيش الحر»، أصبحت الناطق الإعلامي باسمه. أقيم الآن في خرائب الشمال، حيث تم تهجيرنا باتفاق مشين. يتصارع المقاتلون، هنا، بحد السيف، على طول اللحية، وتشذيب الشوارب».

«أنا أنتَ. أنا وفاء، أم الشهيدين، مصعب وعروة. مازلت أعيش ذكرى وفائهما لكروم العنب، التي سقياها بدمائهما».

«أنا أنتَ. أنا مصعب. سليم الجسد، كما يوم موتي، عندما دخلت في رأسي من الخلف شظية قذيفة، انفجرت قريبًا مني. هكذا، تحتفظ والدتي بصورتي».

«أنا أنت. أنا طيفُ عروة. ما تبقى من جسدي؛ رأس مهشم، وكتف وساعد متصل به، بعد أن سقطت قذيفة قربي تمامًا، وانفجرت بي. تم دفن أشلائي على عجل، قرب قبر أخي مصعب».

«أنا أنتَ. أنا بشيرة. وشيت بزوجي الضابط الشهم، بعد أن أقمت علاقة مع «مخبر أمني» في داريا. ثم استغل شبيحة ميليشيات حقيرون جسدينا، أنا وأختي خلود، وحولونا إلى «مخبرتين» على أهالينا. بعد أن سقطت «داريا»، وخرج منها مقاتلونا، رمانا الشبيحة مثل عظمة للكلاب الشاردة. حزينتان، أنا وأختي، لكل ما فعلناه، للأرواح، التي قضت بسببنا».

«أنا أنتَ». أنا ريما، حنين، أيهم؛ أولاد محمد، نتمرجح على شجرة التوت، ونلهو بملاحقة الأرانب، في حديقة بيتنا».

«أنا أنتَ. ماهر، طارق، أولاد إمام الجامع، الذي اختفت جثته في المعتقلات».

«أنا أنتَ. أنا طيف جثة، فرمت جسدي جنازير دبابة، وأنا حيّ. نحن مئات الجثث المفرومة تحت الجنازير. نحنُ أنتَ».

«أنا أنتَ. أنا من تم تصفيته بإعدام ميداني في الشارع، بعد أن رمت «أرواح الحقول» عباءتها على عمتي والأطفال والنساء، وأخفتهم عن أعين الجنود. نحن المئات، الذين تم إعدامهم ميدانيًا في الشوارع، بطلقات مباشرة في الرأس والصدر. نحن أنتَ».

«نحن أنتَ. النجاران، جاراك في الحارة. كنا ندعوك إلى شرب الشاي، كلما مررت بمحلنا. قتلونا أمام عينيك، ولم تكن تستطيع أن تفعل شيئا».

«نحن أنت. آلاف الجثث، المدفونة في قبور جماعية، تم رمي بعضٍ منا فيها أحياء».

«نحن أنت. أطياف جثث، تم تذويبنا بالأسيد في المعتقلات، بعد أن تم انتزاع أعضائنا الحيوية، لتتاجر بها المافيات الطائفية».

«نحن، نحن، نحن...».

أرتعد مذعورًا، وأنا كنت أظن أن عقلي ارتد سليمًا، وعرفت من أكون. من هؤلاء؟ من أنا؟ هل أنا كلهم؟ هذا عالم مجنون، يطل عليّ عبر المرآة، ويحاصرني.

أسمعهم، الآن، جميعًا، يرددون معًا «حكاياتهم». تتداخل أصواتهم بشواش، تتشابك. أغمض عينيّ، وأسد أذنيّ، هاربًا، قبل أن يداهمني الجنون أكثر. لا أستطيع، ضجيج الأصوات يصدر من داخل رأسي. لا أحتمل، أضربه بالمرآة مرات ومرات، لا تغادرني الأصوات. تتهشم المرآة إلى شروخ، وتنزف الدماء من رأسي، تمتلئ بها عيناي. لا يتوقف الضجيج، لا أتوقف عن الضرب. تصبح تشظيات الشروخ في المرآة عشرات، مئات، آلافًا، لانهائية، جميعها مخضبة بدمائي. كل شظية تحمل صورة جثة. لا، هذه ليست صورًا، إنها جثث حقيقية تتحرك، وتتحدث. تنفصل عن شظاياها، الآن، وتنسل إلى الغرفة. آلاف الجثث ينسلون، دون التوقف عن رواية «حكاياتهم». حشود ضخمة من الجثث بضجيجها تمتلئ بها الغرفة، مازالت الدماء تنزف منها غزيرة، تسيل على الأرض، تتجمع بحيرات، تتوسع، تعلو، تغمرنا أكثر فأكثر، نغطس فيها. أغوص في دمائي، وأمضي في ليل أحمر.

أصحو في دفء دماء، تغمرني. لكنها ليست حمرًا، بل ليست دماء، هي مياه دافئة. تلفني سكينة، وأنا أطفو، مسترخيًا على ظهري، عاريًا إلا من سروالي. تدغدغني موسيقى ناعمة خفية، شاعرية، تغمر الأجواء. أين أنا؟ في حوض مياه كبير، واسع، دون نهايات، تغطيه غمامات بخار كثيفة، تمّحي معها معالم الأشياء. ألمح العشرات من الخيالات عبر الغمامات، تسترخي أجسادها العارية في المياه، ورؤوسها تطفو في الهواء مسافرون بعيدًا في أحلام نشوة؛ شبكة تمتد دون نهاية، تتعانق أزواجًا... وأنا، الأسمر الوحيد بينهم. لا أحد يهتم بي، لا أحد يرمقني بنظرة، كأني غير موجود في المكان. أنا في المنفى.

أغمض عينيّ، أنسى المكان، وأسافر. تهاجمني ومضة غريبة، أجد نفسي في مدينة أعرفها؛ دمشق. أنتظر حافلة عند بداية «أوتوستراد المزة»، من جهة «ساحة الأمويين». السيارات تسير في الاتجاهين بكثافة شديدة، وسرعات عالية. في مواجهتي، ينهض بناء، تزين واجهة مدخله لوحة جدارية ضخمة، مثلثة الشكل، مستوحاة من أبنية المعابد الإغريقية، نُقشت عليها «إدارة القضاء العسكري»، مع نحت لميزان العدالة. لا علاقة جمالية لها بما حولها من فوضى أبنية، وركام حواجز أمنية، تغلق الممرات إليه. ينتشر أمامه جنود مسلحون بالبنادق، يرتدون البذلات المموهة، إنما مع قبعات «بيريه» حمر، تميزهم كعناصر «الشرطة العسكرية».

يصعقني رؤية سبعة شباب، في العشرينيات من أعمارهم، يخرجون من البناء؛ مشعثي الشعر، بذقون غير حليقة، حفاة، عراة، إلا من خرق سراويلهم الداخلية القصيرة الممزقة. وجدوا أنفسهم فجأة في الشارع، لهذه الحالة المزرية. تبدو آثار تعذيب واضحة على أجسادهم المتورمة، والدماء متيبسة عليها. أعرفهم، هم من المعتقلين الأمنيين، الذين يخرجون في المظاهرات، ويسعدهم الحظ، وتفرج عنهم «المحكمة العسكرية».

يتقافز الشبان، محاولين اجتياز الأوتوستراد إلى الطرف الآخر، باتجاه «الغوطة الغربية». يتدافعون بين كثافة السيارات العابرة من الاتجاهين، حيث لا إشارات مرورية توقفها. تكاد تدهسهم، مطلقةً أبواقها عاليًا. الشبان خجلون من عريهم في الشارع، لكن غير مصدقين خروجهم ناجين من «جحيم» ما. يراقبهم من الحواجز الأمنية، أمام

المحكمة، عناصر «الشرطة العسكرية»، ينظرون شامتين إلى عريهم، يضحكون لارتباكهم، في أثناء عبور الأوتوستراد.

غريب، أنا واحد من هؤلاء الشبان. سروالي الداخلي ممزق بالكامل، أحاول ستر عضوي المكشوف بكف يدي اليمنى، بحركة غريزية خجلى، فيما لا أستطيع تحريك ساعدي الأيسر، الذي حطمه السجان ببوطه العسكري.

يفاجئنا برد خريف قاس لحظة خروجنا، فيأخذ كل منا بفرك جسده المرتعش، جلبًا لدفء ما. تنكمش أقدامنا العارية متألمة، وهي تدعس على ما يعترضها من حصى صغير، وحطام زجاج حوادث سيارات، تتناثر على أرضية الطريق. لا يجرؤ أحد من ركاب سيل السيارات، أو المشاة العابرين، أو المنتظرين على موقف الحافلات، على الاقتراب منا، أو حتى النظر إلينا. ينفض القريبون عنا سريعًا، خوفًا من اعتقال مفاجئ، بتهمة مساعدة «الإرهابيين».

بعد ثلاثة أشهر من حفلات التعذيب في معتقل مظلم، كنا نقف في المحكمة، أمام قاضٍ عسكري برتبة مقدم. يبدو ضجرًا، متأففًا، وهو يلقي علينا، نحن «المنفلتين من القانون» درسًا أخلاقيًا، لنعود إلى «جادة الصواب»، وعدم تكرار خروجنا في مظاهرات داريا ضد «النظام». سنكون نحن العشرة من المحظوظين، ويفرج عنا، بعد أن تبين له أن «لا ملفات خطيرة بأسمائنا»، و«لا تهم واضحة بحقنا»، كما قال. نجونا مصادفة بجثثنا، قبل أن تتحول إلى تجار مافيات الأعضاء البشرية.

عند وصولنا إلى الطرف الثاني من الأوتوستراد، نمد أيدينا

لسيارات «تاكسي الأجرة» الصفراء، أو أي سيارة عابرة ما، عسى أن تقلنا إلى داريا، ويتولى أهالينا دفع الأجرة. لكن جميع السيارات بلا استثناء تنحرف عنا، تحاذرنا، كأننا نحمل مرض الطاعون.

فجأة، تتوقف أمامنا شاحنة هوندا صغيرة، يبدو أن سائقها «بطل من هذا الزمان»،» أنا من داريا، أيامكم حرية».

نتقافز إلى صندوق الشاحنة، وأسقط عاريًا في... حوض مياه دافئة، به أناس شقر، عراة بالكامل، ليس لديهم سراويل ممزقة، مثلي. كيف وصلت إلى هنا؟

سرعان ما أخذ لون المياه حولي بالتحول إلى الأحمر؛ الدم، الذي ينزف به جسدي. يغدو الحوض كله أحمر، وتعلو موسيقى صاخبة، بإيقاعات سريعة في الأجواء. تختلج الأجساد المسترخية في المياه، تستيقظ من سبات نشوتها السرية، وتتفجر في هياج عاصف.

فجأة، أسقط في ليل ساحة، منارة بعناقيد نجوم، معلقة على عمدان، ترتفع عاليًا في الفضاء، تطفو بينها بالونات ملونة، تعكس ألق الأنوار، تضفي البهجة على المكان. تنتشر، على الأطراف، أكواخ باعة، ودودين، مبتسمين، يقدمون المشروبات الكحولية، والوجبات الخفيفة، على طاولات خشبية. صخب محبب يعلو من حشود في الساحة، ترقص أزواجًا على وقع موسيقى مرحة. تظهر صورهم على شاشات إلكترونية ملونة هائلة الحجم، تسوّر أطراف الساحة عاليًا، تُبرز وجوههم وملابسهم في لقطات مُقربة. ينتمي الراقصون إلى بلاد مختلفة؛ بألوان بشرتهم، وتقاطيع وجوههم، وأزيائهم الشعبية، وطريقة رقصهم.

أرى امرأة بين الحشود، اسمها أوشي، في ثوب خمري أنيق، مفتوح الصدر. كيف أعرف اسمها، أين التقيت بها؟ لا أتذكر سوى صورة غائمة، وهي تستحم تحت الدوش، وقد سالت رغوة الصابون على جسدها بشكل مُغرٍ. ما إن تراودني هذه الصورة حتى أفكر، هذه امرأة شبقة شهوانية، ستمنحني متعة جسدية استثنائية، تعوض حرماني الطويل.

أقترب منها، وأسألها «أوشي، يسحرني جسدك، هل ترغبين أن تكوني حبيبتي؟».

تضحك عاليًا، وتجيبني «حتى في الاحتفالات تلاحقني بهوسك. جربتُ مرة النوم معك، بعد أن كنت تراقبني أستحم تحت الدوش. في السرير، لم ينتصب أي شيء في جسدك، كل أعضائك كانت مرتخية. وبدلًا من أن تعانقني، وتقبلني، أخذت تروي لي هلوسات مجنونة عن فيلم سينمائي غريب؛ عن حوامات على شكل غربان سود، تحوم في رأسك، وتلقي براميل متفجرة على كروم عنب، تنمو على صدرك».

تمددت مع امرأة، وحدثتها عن فيلم! لا أتذكر.

لم أنتبه إلى أن صوَّري، وأنا أتحدث مع أوشي، تُعرض على الشاشات المنتشرة حول الساحات... كأني مراقب في تحركاتي. لا يهم، فلأبحث عن امرأة لي، في هذا الحشد الكبير.

ألمح امرأة أخرى، تشرب كأس نبيذ أمام كوخ. أعرفها أيضًا، اسمها سونيا، من أصول برازيلية. أتذكر في ومضة جسدها الخمسيني

الفاتن، في «مايوه بكيني»، على شاطئ بحيرة. أقول لها «عشقتك من النظرة الأولى، عندما شاهدتك قرب البحيرة».

تبتسم، وتقول لي «لا، أنت تلاحقني دون ملل، منذ زمن طويل. عندما كنت في المايوه، عند البحيرة، لم ترفع عينيك عن جسدي. أعرف أنه يغريك، وتحتاج إلى امرأة، تقتل وحدتك، في بلاد، أنت غريب فيها».

«ألا توافقين؟».

«طبعًا لا، فأنا عاشقة منذ مراهقتي لرجل آخر، هارب أيضًا من بلادكم؛ يسوع المسيح. أنت تعرفه، الرجل الذي تحيط برأسه هالة نور مشعة، لا تنطفئ، أينما تحرك. وُلد في بلادكم، ثم صعد إلى السماء ليرتاح، بعيدًا عن ضجيج جنازير الدبابات. لكن الحوامات ملأت سماءه، وأخذت ترمي منها براميل متفجرة على الأرض، وتُصدر هديرًا مزعجًا، فأقلقت نومه. لجأ إلى غابات الأمازون، حيث ولدتُ، ونشأتُ، بحثًا عن الهدوء والسكينة. وأقام على رؤوس الأشجار، قريبًا من السماء. عندما شاهدني، ذات مرة، أستحم تحت شلال ماء، في الأدغال، وقع في عشقي. يُنزل لي كل ليلة من السماء طعام العشاء، نتناوله، ونتنزه بعدها سيرًا على الأقدام، فوق نهر الأمازون، على الماء مباشرة، ونقضي بعدها ليلة مجون. عندما تعرفت إليه، كان مسكينًا، بسيطًا، لديه جسد «عذراء». لم تمسسه امرأة أخرى، سوى والدته. بعد قضاء الليلة الأولى معي، أصبح مهووسًا بي، يمارس معي الجنس عشر مرات، في الليلة الواحدة، يعوض به حرمانًا طويلًا. يقول إنه يكتسب طاقته الهائلة من السماء، إنما لا يريد أن يكون مثل والده

العجوز، يتلصص على النساء المتزوجات من السماء، ويبذر بذوره بعد الاستمناء في أرحامهن. لماذا أتركه لأجلك. ثم أنت مريض بالاستيهامات الغرائبية، والهلوسات المجنونة، قادم من بلاد مشتعلة بحروب الغاب. أعتذر منك، ها هو يسوع يهبط من السماء، بهالته النورانية، بعد نوم والده. سنرقص معًا في هذا الاحتفال».

تصيبني خيبة أمل شديدة من جديد. والصور على الشاشات مازلت تعرض خيبتي.

يفاجئني وجود امرأة، ترتدي ثوبًا بدويًا، مطرزًا بزخارف شرقية. شدت زنارًا فوقه، عند مؤخرتها، يُبرزها ممتلئة. ترقص بعصا، ملوحة بها. ماذا تفعل هنا، في هذه البلاد الغريبة؟ تقترب مني «ألا تتذكرني، أنا جارتك زينب، نسكن في الحي نفسه».

جارتي! في حيّي! أنظر إلى جسدها المغري، وشفتيها الشهوانيتين. أسارع القول «هل تقبلين الرقص معي، وتصبحين حبيبتي؟».

تجيبني وعلى وجهها ابتسامة ساحرة «ينبغي أن أفكر بالاقتراح، أو بالأحرى، ينبغي أنت أن تفكر به. أنا هنا امرأة حرة، أعيش في بلاد حضارية، يتساوى فيها النساء والرجال بالحقوق، حسب القانون. مع ذلك، أحب أن أحافظ على تقاليد بلادنا الشرقية، لكن ضمن حقوقي. متزوجة، الآن، من أربعة رجال معًا، أحدهم طفل في التاسعة من عمره، عملًا بقوانين الصحراء. نقيم معًا في شقة واسعة، وأنام معهم كل ليلة، بالتناوب، وأحيانًا أجمعهم في غرفة واحدة، في حفلة مجون جماعية. إذا رغبتُ بك زوجًا جديدًا، فينبغي أن أطلّق واحدًا منهم،

حسب تقاليدنا. لكن مهلًا، هناك طريقة لأضمك إلى حاشيتي. أستطيع بمالي شراء رجال فحول جنسيًا، من مختلف البلاد، للاستمتاع بهم؛ تغيير مزاج، فأنا أشعر بالملل من رجالي الأربعة. أنا امرأة مقتدرة ماليًا، أعمل في تجارة العطور، ولها سوق رائجة هنا. إنما لديّ شرط آخر. نحن النساء هنا، لدينا جنة استيهام حضارية، تسيل فيها أنهار من المشروبات الكحولية، نشرب منها بلا حساب، وندخن فيها جميع أنواع المخدرات، مما تشتهي أنفسنا. نعيش فيها دون دورة شهرية، ولسنا بحاجة لاستعمال موانع الحمل، فنحن لا نحمل ولا نلد، ولا يتقدم العمر بنا، نبقى صبايا حلوات. لدينا فيها رجال حوريون، لم تمسسهم امرأة من قبلنا، يلبون جميع رغباتنا الجنسية. تمتلك كل واحدة منا هنا قوة سبعين امرأة في الطعام والجماع. وإذا رضيتُ بك زوجًا، وأدخلتك جنتي، فعليك أن تنتظر دورك لتمارس الجنس معي، إذ لا يوجد في هذه الجنة حوريات غيري. فهل توافق على شروطي».

تقترب مني امرأة بخمار أسود، يكشف عينين فاتنتين، وبرداء أسود ينسدل على كامل جسدها «أنا فاطمة، دعك من هذه الترهات. لماذا تركض وراء هاته النسوة الشواذ. لترتبط معي بعقد «زواج متعة»، وتستمتع بجسدي شرعًا. يستمر العقد من ساعات إلى عدة أشهر، بقدر ما تدفع من أموال. لكن السعر يرتفع عندنا مع البنات الأبكار. عندما تشعر بالملل، تستطيع تبديل العقد مع صديقة لي. يمكنك الآن أن تعاين البضاعة مباشرة».

تبتعد عني مسافة، وتفتح رداءها، فينكشف جسد أسمر عار «تستطيع أن تتلمس أعضائي، وتختبر حميميتها».

ثم تردف «نحن شبكة دولية، مركزها إيران، تمتد فروعها في كل البلدان، وصولًا إلى أوروبا، هنا، ننافس بيوت الدعارة فيها بالحلال. ومع «نساء المتعة»، نقدم خدمات إضافية أخرى؛ مخدرات حشيش من أجود الأنواع، تتم زراعتها في سوريا ولبنان، بإشراف مباشر من «حزب الله»، بضمانات جودة من إيران. لكن حتى تحصل على خدماتنا، ينبغي أولًا أن تحج إلى «العتبات المقدسة» في «قم» بإيران، وتقاتل الأمويين في داريا، كي تُسرع عودة مهدينا، عن طريق سرداب، تم اكتشاف مدخله هناك».

أشعر بدوار، أجلس منهكًا، على مقعد، أراقب المحتفلين أمامي في الساحة بخيبة أمل. لماذا تلاحقني الشاشات وتنقل صوري، بدل هذه الحشود من الراقصين؟

لم أنتبه إلى أن شابًا في نهاية العشرينيات من عمره، يجلس قربي. يفاجئني متحدثًا بلغتي «اشتقت لك يا صديقي الكبير».

ألتفتُ إليه، يمتلك سحنة سمراء ناعمة، ومظهرًا أقرب إلى الأنوثة. يرتدي بنطالًا جلديًا أسود، وقميصًا مشجرًا، بألوان فاقعة. حلق نصف رأسه، وترك شعر النصف الثاني مجدولًا، بعد أن صبغه بالنهدي. يُعلق في أذنه اليمنى حلقًا ذهبيًا، ويضع مسحة ماكياج على وجهه. أسأله مستغربًا «من أين تعرفني؟».

«ألا تتذكر؟ أوقفتك مرة على حاجز أمني، باتجاه داريا، وحققت معك. كنت أتسلى أبثّ الرعب بالعابرين. فاجأتني ردة فعلك، عندما أهديتني كتابًا تحمله؛ رواية كتبتها أنت، واسمك عليها؛ «وصايا الغبار»».

حاجز أمني! رواية كتبتها! ربما تختلط الأمور على هذا الشاب. أسأله «لكن ماذا تفعل هنا؟».

«والدي ضابط كبير في «الأمن العسكري»، من منطقة الساحل. استقرت عائلتنا في دمشق، في منطقة التلال المشرفة على داريا. يفتخر والدي باعتقاله عددًا كبيرًا من المتظاهرين، وتصفيتهم في المعتقل، الذي يُشرف عليه. طلب مني أن أناوب على «حاجز أمني»، على أحد مداخل داريا، لنلقي القبض على «الإرهابيين». كان يريد تهيئتي، كي ألتحق بـ «الكلية العسكرية»، وأتخرج فيها ضابطًا، يضمني إلى جهازه الأمني. أخوتي الستة، الأكبر مني، انضموا إلى عدة فروع أمنية، وإلى «الحرس الجمهوري»، وأخواتي البنات الخمس لديهن مناصب مهمة في الدولة، بغض النظر عن الشهادة الابتدائية، التي يحملنها. خيبت أمله، فأنا بطبيعتي لست عنفيًا، وأكره السلاح. إنما وجدت على الحاجز الأمني للتسلية، فقد كانت حياتي مملة، فارغة، في وقت تفور فيه البلاد بالاضطرابات. أحقق مع العابرين، لكني لم أعتقل أي شخص، وأنت منهم».

«وماذا تفعل هنا الآن، لماذا ترتدي هذه الملابس؟».

«التقيت على الحاجز بمتطرف إسلامي، متخف بملابس عصرية. لديه جسد ممشوق، وخبرة في ركوب الخيل. أغراني برجولته، واكتشفت أمامه ميلي الجنسي نحو الرجال. سيعترف لي لاحقًا بملله من «التنظيم الإرهابي»، الذي هجره، خاصة بسبب مسؤوليته عن عرض الرؤوس البشرية المقطوعة أمام المسجد، أيام الجمعة. بما أن الظروف ليست مناسبة للاستمرار بعلاقة الشغف الجنسي بيننا في

بلادنا، فقد قررنا الهجرة معًا إلى بلاد الغرب، واقترنا رسميًا زوجين أمام القانون. تخلينا عن جنسيتنا، وأصبح اسمي في الوثائق الرسمية بول، واسم صديقي جان».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«أصبح جان يخونني مع رجال شقر، ويمضي ليالي ماجنة معهم. يقول لي إنه يحق له النوم مع أربعة رجال دينيًا. ثم تخلى عني، وتحولت حياتي إلى جحيم. أتقلب، الآن، من رجل إلى آخر، لا أستقر على علاقة دائمة. أبحث عن رجل كبير، حنون، يعوضني عن نزق الشبان وطيشهم. أعرفك منذ أن قرأت روايتك، وشعرت أنك رجل أبوي عطوف. أحلم دائمًا بالارتباط بك، يا صديقي الكبير. لحسن الحظ، التقيت بك أخيرًا، وأقسم لك إني لن أخونك أبدًا مع أي رجل آخر».

يصيبني الذهول مما أسمع. كأني وقعت في فخ مثل أبله، أنا الذي يبحث طوال الوقت عن امرأة حلم، بعيون عسلية. أنسحب بلطف «أعتذر يا صديقي. ليست لديّ ميول مثلية. أنتظر امرأتي هنا، فهي قادمة لتشاركني الاحتفال».

لماذا تُوثق صوري على الشاشات الآن في لقطات مقربة؟

تتتالى خيبات الأمل.

«أنا كورينا. ألا ترى علم المثليين بألوان قوس قزح، مطبوعًا على حقيبتي وملابسي. أنا متزوجة رسميًا من صديقتي. للأسف، لن تستطيع الاستمتاع بالجنس معي، فأنا سحاقية، لا أنام إلا مع النساء. مع

أن صديقتي تستطيع بطبيعتها تقبل الجنسين، إنما لا أسمح لها، تملؤني الغيرة إذا لمسها رجل. إذا رغبت بالحياة معنا، فمن الممكن أن تراقبنا طوال الليل، ونحن في السرير، وتمارس متعتك الذاتية بجانبنا».

«أنا ليليان. من حسن حظك أن زوجي هجرني منذ أيام، من أجل امرأة لديها كلبٌ كبيرٌ. أنا وحيدة الآن، إلا من كلبي الصغير المدلل. تستطيع العيش معنا، بشرط أن تسمح له بمشاركتنا الفراش، وممارسة الجنس معنا، كما كنا نفعل أنا وزوجي السابق».

لم أنتبه إلى طيف امرأة يجلس جانبي، على المقعد؛ طيف ضوئي، شفاف هلامي، يهتز مرتعشًا. أمد يدي إليه لألمسه، تنسل في الضوء، لا أمسك شيئًا. تُصدر ضحكة، وتتحدث بلغتي «لن تلتقط شيئًا، أنا مُنتج إلكتروني؛ برنامج واقع افتراضي، تم إنشائي تجاريًا لتلبية الاحتياجات الإنسانية الخفية. يوجد منا نسخ نساء، ورجال، وأطفال، وحيوانات، حسب طلب الزبائن. ما أقدمه، الآن، لك هو إعلان ترويجي مجاني عن نسخة نسائية».

«لكنك تتحدثين لغتي؟».

«أتحدث أي لغة في العالم، بقراءة أفكار الزبائن».

أسألها متلهفًا «وهل تعرفين شيئًا من ماضيّ، ومستقبلي؟».

«لا، أنا لست عرافة أو متنبئة. أعرف فقط ما يدور في رأس الزبون من رغبات وأحلام، وعلى أساسها أتفاعل معه، وأطور نفسي إلكترونيًا لتلبيتها».

«من يحتاجك، إذًا؟».

«الجميع بحاجة إليّ. الإنسان في عالمنا المعاصر يعيش في انعزال اجتماعي وخواء روحي. لم يعد يستطيع التفاعل مع الناس حوله؛ مع زوجة، أو أبناء، أو أقارب، أو أصدقاء، أو جيران. حتى العمل والتسوق أصبحا يتمان عن طريق الأنترنت، دون لقاءات مباشرة. لم يعد التدين ومؤسساته تلبي أي احتياجات، ومثله أي تنظيم سياسي أو نقابي أو اجتماعي. في مستقبل قريب لن يعود الإنسان بحاجة للزواج، فسيتم تصنيع الأطفال عن طريق الاستنساخ الجيني. أنا أملأ هذا الفراغ الروحي والاجتماعي، بعد قراءة الأفكار بالتخاطر والتشابك المعلوماتي»

أبدو أبله أمام الطيف ـ البرنامج. لماذا أبحث، إذًا، عن أم العيون العسلية؟

يفاجئني الطيف «إذا اشتريتني، فلن تكون بحاجة لأم العيون العسلية. سأستمع إليك، وأحدثك من القلب إلى القلب، فتتخفف من الضغوط عليك».

«لكن أم العيون العسلية ليست روحًا فقط، بل هي جسدٌ أيضًا».

«لا ألبي الاحتياجات النفسية والروحية فقط، بل والجسدية أيضًا. تستطيع ممارسة الجنس معي. أنا مبرمجة عاطفيًا وانفعاليًا، بالدرجة الأولى، لهذا الهدف».

«كيف، وأنت طيف إلكتروني ضوئي؟».

«أستطيع تلبس أي جسد، موجود في ذكرياتك أو أحلامك.

أصبح لحمًا ودمًا وسوائل، أتنفس، وأتأوه بشكل طبيعي، وأذهب معك إلى الحمام. برامجنا تستطيع أن تخلق في عقلك عمليات استيهام لا محدودة. لديك حرية اختيار الجسد الذي ترغبه؛ جسد صديقة، ابنة الجيران، زميلتك في العمل، زوجة صديقك، ممثلة مشهورة، شخصية سياسية، أو حتى جسدٌ متخيلٌ في ذهنك، كما في أحلام اليقظة. كما أننا لدينا خدمات إضافية، ببرامج متطورة أكثر، إذا دفعت مبالغ أعلى. تستطيع النوم مع جسد ابنتك، أو أمك، أو جدتك المتوفاة، ويمكن أن تنام مع أطفال من كل الأعمار، أو مع حيوانات، أو جثث مدفونة حديثة... كل رغباتك الدفينة في اللاوعي يمكننا تحقيقها».

«كيف يمكن الحصول عليك؟».

«بمراسلة الشركة المنتجة. فقط، أرسل لنا اسمك وصورة لك، فلدينا كافة البيانات عنك. يتم جمعها عبر استخدامك وسائط التواصل الاجتماعي الحديثة. تحول النقود إلى حسابنا البنكي، فتتلقى قرصًا إلكترونيًا مع جهاز تشغيل. وقبل أن أودعك، فقد قربت فترة الإعلان المجاني على الانتهاء، أخبرك أن شركتنا الرائدة أصدرت منتجًا جديدا، أكثر تطورًا. تستطيع الاشتراك بمجموعة صداقة مع عدة أشخاص، من مختلف مناطق العالم، رجال ونساء. تستطيعون الاجتماع جسديًا بالتخاطر، وممارسة الجنس الجماعي، رغم وجودكم في مناطق جغرافية متباعدة؛ اجتماع حقيقي بالأجساد، والعواطف، والرغبات، نسميه «التقاء الثقافات». البرنامج يؤمن لكم الأجواء الحميمية المرغوبة؛ حمام سباحة أو ساونا، شاطئ بحيرة، نادي عراة، قصر أحد الرؤساء، أو على كوكب المريخ... أودعك الآن، ننتظر منك إرسال طلبك».

لا أصدق ما أرى وأسمع، كأنه حلم يقظة إلكتروني. لكن صراخ صور من الشاشات يشدني انتباهي. تُعرض عليها، الآن، مواكب رجال عراة الصدور، يتوزع بينهم أطفال، بعصائب سود، شُدت على رؤوس الجميع، كُتب عليها «لبيك يا حسين». ينهالون على الصدور والوجوه باللطميات، على إيقاع الرادودات الشيعية. فجأة، يتعالى الصراخ الهستيري منهم، ويتقافزون بجنون جماعي، متحولين إلى جلد ظهورهم بالسياط، إلى حد الإدماء. وزيادة في مازوشية تعذيب الذات، يستبدل بعضهم بالسياط سلاسل حديدية، يضربون بها أنفسهم، فيشجون الرؤوس، ويكسرون الأضلاع. الدماء تملأ الشاشات.

على الرغم من أن أزواج الحشد في الساحة ما يزالون يرقصون بشكل طبيعي، إلا أن مشاهد المواكب الدموية هي التي تظهر على الشاشات الإلكترونية. وأنا كنت أظن أنها تعرض ما يحدث في الساحة. مع من كنت أتحدث، إذًا؟

فجأة، أجد نفسي وسط المواكب الدموية، تحيط بي حلقة من المهوّسين، المتقافزين بجنون. عاريي الصدور، مُلطخين بالدماء، أحملُ سيفًا، ألوح به. تشتد اللطميات وتعلو الرادودات حولي، فتذهب الهيستريا بي إلى أقصى الحدود، متجاوزًا حماسة الجموع. أفتح بسيفي جروحًا عميقة في جسدي، أجدع أنفي، أقطع يدي اليسرى. تنفر الدماء مني، تملأ الأرض مسيلات. يثيرني منظر الدماء، تتفجر بي غريزة وحش الغاب. أضرب بالسيف خبط عشواء حولي، الرجال والأطفال، أقطع الرؤوس، تتدحرج على الأرض، وأمضي إلى بقايا الأجساد، فأستمر بتمزيقها. أمتصُ الدماء عن نصل سيفي مستطيبًا، ويزداد عطشي لها

أكثر. يتراكض الرجال والأطفال إليّ، يصطفون أمامي راكعين، وقد مدوا أعناقهم لي... هل أنت مسرورة يا فاطمة؟

تعرض الشاشات صورًا جديدة، لا علاقة لها أيضًا بحشد الساحة. مازلت فيها عاري الصدر، مُدمى الجسد، وحاملًا سيفي. إنما أنا في معبد، أشبه بكنيسة؛ سقف مقنطر عال، ترفرف في فضائه ملائكة، بأجنحة طيور، وذيول بطات، تدور حول شبح عجوز، أشيب الشعر، بلحية طويلة بيضاء، يمارس الاستمناء. أتوسط حشدًا من النساء والرجال، من أجناس مختلفة، يرتدون أثوابًا بيضًا، خشنة واسعة، تنسدل على الأجساد. يصفقون متأرجحين، وهم يترنمون بتراتيل دينية، على إيقاع ألحان أرغن كنائسي، تذهب أنابيبه عاليًا. تقود حركاتهم كاهنة أربعينية، مثل مايسترو فرقة موسيقية، يتأرجحون يمينًا ويسارًا، مع تموجات يديها. أشاهد بينهم أوشي، وسونيا، وكورينا، وليليان، وآخرين أعرفهم، دون أن أتذكر أين التقيت بهم. لا أصدق أن زينب وليلى موجودتان أيضًا بينهم! آه، وماذا يفعل الشاب بول هنا؟ يمسك بيده شابًا مفتول العضلات، ويتمايلان معًا. بالتأكيد، هو جان.

يتصاعد خلف الكاهنة دخان أزرق خفيف، من اشتعال أعشاب يابسة، في مجمرة كبيرة. تضوع رائحتها المُسكرة، في أرجاء المعبد. ما إن أتنسمها، حتى ينتابني دوار خفيف، فأرخي سيفي، وأتأمل الحشد بهدوء.

تتسارع إيقاعات موسيقى الأرغن، ومعها حركات يدي الكاهنة. تطلق صرخات هلوسات، وينتاب جسدها ارتعاشات هستيرية. تنتقل العدوى إلى أفراد الحشد، يقلدونها، فيصيبهم الجنون

مثلها. ثم تمزق الكاهنة ثوبها بعصبية، وتَسقط المزق أرضًا، فتنكشف عارية، بجسد أبيض. يقلدها أفراد الحشد، مشكّلين حولها حلقات من العراة، بألوان بشرة متنوعة؛ من البياض، ومرورًا بالسمرة، حتى السواد، تدور متعاكسة. أدور معهم عاريًا، بانتشاء روحي، دون أن أتخلى عن سيفي. ترفع الكاهنة كأسًا، تشربه دفعة واحدة، وتسقط أرضًا، في نوبة من الاختلاجات، وهي تصرخ بهستيريا «يا إله المنام، خذني إليك». يشرب الجميع حولها كؤوسهم، يسقطون، ويتقلبون مختلجين، وهم يصرخون. كأنهم شربوا سمًا، وها هم يصبحون كتلة واحدة مرتعشة أمامي.

أجلس على مقعدي في الساحة، أراقب ما يحدث من جنون على الشاشات، وأشاهد نفسي، في الوقت نفسه، مشاركًا في مشاهدها. ما دمت أنا هنا، في الساحة، فكيف أنا هناك أيضًا، على الشاشات؟

يثيرني مشهد الأجساد العارية، المنطرحة أرضًا، في المعبد. أتحسس مقبض سيفي، ذبل دون دماء. أفصل الرؤوس عن الأجساد مستمتعًا، وأرميها خارج الشاشات. تتدحرج أمامي، وأنا جالس على المقعد، في الساحة، تلحقها الأجساد الممزقة. أرتعش مذعورًا لمرآها. تتكاثر حولي الأشلاء، وتعلو تلالًا، وتسيل منها سواقي دماء، فتتشكل حولها بحيرات دم. تنطفئ عناقيد النجوم في الساحة، ويختفي حشد أزواج الراقصين المرحين فيها. أين مضوا؟

تتفجر الشاشات، الآن، بهدير ناعم، يتشظى زجاجها في فضاءات الساحة غبارًا فضيًا متألقًا، مثل نجوم مجرة، تتوسع في عتمة كونية، بعد «انفجار بدئي أعظم». أجد نفسي وحيدًا، أسبح في

فضاءات، ماتزال تهطل فيها الجثث، رغم اختفاء المكان. من أين تأتي الجثث، مادامت الشاشات تحطمت؟

يتفجر الشواش في رأسي عاليًا، ينتابني صداع شديد. أحاول أن أضغط عليه بين يديّ، كي أتخفف منه. لا أمسك شيئًا، لا ألتقط إلا فراغًا. أين رأسي؟ لكنني أشعر بأشياء تنسل بين أصابعي، وتتطاير حولي، إنها الجثث. كيف تخرج من رأسي المختفي، تتضخم وتتطاير؟ كنت أظنها تسقط من الشاشات. أنا نفسي، الآن، أتشظى. أطلق صرختي الأخيرة، وتتساقط تشظياتي في ظلام، في خواء، في عدم.

أستيقظ في غرفة نومي، على ضوء الصباح الباهت، المتسلل من الشرفة. أجلس في السرير، أتأمل غرفتي. أشاهد الجثث، التي خرجت من المرآة، تتكدس في أرجاء الغرفة، ومنها تتوزع في بقية أجزاء المنزل. تتمدد على الأرض، متقلبة على جنباتها، من حين لآخر. لا أدري إن كانت الجثث تنام في الليل، وتستيقظ في الصباح، وهل تتألم مثلي، أم فقدت الأحاسيس.

إنها جثثي الحزينة، قدمت تستنجد بي عبر المرآة. تشعر بالوحشة في مقابرها الفردية والجماعية، هناك، في داريا. ولا ترغب بمفارقتي، هنا، في «المنفى»، رغم الوحشة التي تحيط بي. ربما يتسلل إليها الأمان، الذي أعيشه هنا، فتشعر بالطمأنينة أكثر مما هناك؛ مسكن مريح، مليء بالطعام والشراب، يقع في منطقة خضراء، تحيط به الشوارع الأنيقة والنظيفة، وهو ما يُفتقد هناك، حيث لم يبقَ إلا الخراب والدمار.

علي أن أستحم، وأصنع كأس الشاي، بالليمون والنعناع،

وأمضي به إلى الشرفة. لا أعرف ماذا يخبئ لي هذا النهار.

أسمع، فجأة، صوت جلبة غريبة، قادمة من جهة الشرفة؛ قعقعة محركات آلات، وصرير جنازير، ولغط أناس ضاج. يتلو ذلك أصوات انفجارات هادرة، تهتز لها الشقة. ماذا يحدث؟ لقد انتهى كابوسي الليلي، وها أنا في شقتي، فمن أين تأتي هذه الأصوات؟

أركض إلى الشرفة، متقافزًا بين الجثث. يا لهول ما أرى! الحي، الذي أعرفه فارغًا من الناس، ممتلئًا بالدبابات والآليات العسكرية، والجنود منتشرون في كل مكان؛ في الفسحة، في الشارع، أمام المنازل والبنايات. أنا هنا في «المنفى»، في دولة أمان، انتهت فيها الحروب منذ زمن بعيد، وتعيش في سلام، فلماذا الاستنفار العسكري؟

لا أصدق ما يحدث حولي، الدبابات تمر فوق السيارات الأنيقة، المصطفة على طرف الشارع، إلى اليسار. تحطمها تحت جنازيرها. ثم تتجه إلى المنازل، فتسحق زنابق حدائقها، وتقتحم جدرانها، فتنكشف غرفها. السماء الصلدة، التي تخفي تحتها المدينة الممتدة، اللامرئية، تحلق فيها حوامات. تلقي براميل متفجرة عليها، فتهدر أصوات انفجارات. على من تلقي البراميل؟ وإلى يميني، تشتعل حرائق كثيفة في أشجار الغابة، التي تغطي التلة، خلف البنايات. من أشعلها؟ لا غيوم اليوم في السماء، إنما سحب دخان كثيفة، وأجواء غبارية.

يتراكض الجنود ببنادقهم، هنا وهناك، يرتدون الخوذ العسكرية، والملابس المموهة؛ جنود سمر وشقر، كأنهم من جنسيات مختلفة. لا، ليسوا كلهم جنودًا، بل وأفراد ميليشيات مسلحة، يرتدون

ملابس مدنية مهلهلة، رميت فوقها سترٌ مموهة. لا أصدق ما أرى، إنهم ينهبون شقق البنايات. يقف بعضهم على الشرفات، التي تحطمت أصص الأزهار عليها، ويرمي «التعفيشات» في صناديق شاحنات عسكرية، مركونة تحتها في الفسحة. أرى الأثاث نفسه، الموجود في شقتي، يُرمى من الشرفات، ويتكدس فيها محطمًا. تمتلئ الشاحنات، وتتحرك فوق الشجيرات، وتمضي خارج الحي.

تجلس مجموعات من الضباط على أرائك، وسط الفسحة الخضراء، تزين النجوم والأوسمة الصدئة بزاتهم. تلّوث عشب الفسحة حولهم بالسخام، وسُحقت فيها ورود شقائق النعمان، واختفت من الشجيرات الطيور الغريبة النادرة، بأصوات شدوها الجميل. يتناول الضباط مشروبات كحولية، من الزجاجات مباشرة، وهم يلقون التعليمات على الجنود، بلغات مختلفة، ومن بينها لغتي. أفهم كل اللغات.

في رأس الشارع، الذي يقود إلى مخزن التسوق، ينتصب حاجز عسكري للتفتيش، يتوزع عليه جنود ببنادقهم، مع دبابتين على الطرفين.. أرى مجموعة من الجنود يقتادون رجالًا، مكبلي الأيدي وراء ظهورهم، ويدفعونهم ببنادقهم. من هم؟ متى سكنوا الحي، دون أن أنتبه لهم؟ ألمح «الجار» بينهم. لماذا يعتقلونه؟ لا، كلهم نسخ الجار. يسيرون مستسلمين، مطأطئي الرؤوس. يقودونهم إلى جهة المراجيح، يصفونهم هناك، ويطلقون عليهم نيران بنادقهم، فيتساقطون مضرجين بدمائهم. وها هي مجموعة ثانية من الجنود تقود صفًا آخر من نسخ «الجار»، ويلقون المصير نفسه. هل عادت إليّ الهلوسات؟

أسمع صراخ نساء، من جهة المنازل، على اليسار. أرى نسخًا من «الجارة» مطروحات أرضًا، مكشوفات النصف السفلي، وقد ارتمى فوقهن جنود بملابسهم المموهة، دون أن يتخلوا عن بنادقهم، يغتصبونهن بوحشية، بالتناوب. تستسلم نسخ «الجارة»، ويتحولن إلى تماثيل حجرية، تحت أجساد الجنود، ومع ذلك يستمرون باغتصابهن. لكن هناك أيضًا نسخ من «خنثى»، شرسات، يشبهن الهررة المتوحشة، يخرمشن وجوه الجنود بمخالبهن. ما إن يتغلب الجنود عليهن، ويكتشفون أن جسد الأنثى لديهن يمتلك عضوًا ذكريًا، حتى يقلبونهن على البطن، ويغتصبوهن من الخلف بمتعة زائدة.

يتوزع على الشرفات، الآن، أشخاص متجهمو الوجوه. يحتل كل واحد منهم شرفة، ويحيط به حرسه الخاص من الحيوانات الممسوخة. أعرفهم جميعًا، وأتذكر أسماءهم، إنما لا أدري أين كنت أشاهد صورهم باستمرار؟ نيرون، هولاكو، تيمورلنك، نابليون، هتلر، ستالين، موسوليني، فرانكو، سالازر، تشرشل، روزفلت، ماو تسي تونغ، كيم إيل سونغ، بول بوت، بينوشيه، عيدي أمين، الخميني، الخامنئي، بن لادن، القذافي، صدام حسين، وحسن نصرالله، وترامب... والقائمة طويلة. تمتد بهم الشرفات بعيدًا، إلى اللانهاية. كنت أظن أن معظم هؤلاء الزعماء قد ماتوا منذ أزمان بعيدة، فإذا بهم أحياء على الشرفات. آه، أرى واحدًا بينهم، ممن لم يمت حتى الآن. أكثرهم جنونًا، أتذكر اسمه جيدًا، بوتين، هو من جرب أسلحته الفتاكة في داريا. يقف وراءه قزم صغير، بطول ثلاثة أشبار، ضائع بين أقدام الحراس، وهو يحاول مسح حذاء بوتين. لكنهم يركلونه باستمرار، كي يبقى في الخلف، فيضحك ببلاهة. أعرفه أيضًا، فهو هارب من

«مستشفى الأمراض العقلية» في البلاد، التي قدمت منها.

يرتدي جميع الزعماء بزات عسكرية، مهترئة من كثرة الاستعمال، تزين صدورها الأوسمة، تسيل منها الدماء. أنتبه إلى أن بعضهم يرتدي قفطانات بدوية، أو أردية سودًا، بدل البزة، يزينوها أيضًا بالأوسمة الدموية. ألمح الأنصاف السفلية للجميع، من بين فتحات أخشاب الشرفات، دون ثياب، أرى أعضاءهم الجنسية صغيرة، منكمشة، ذابلة، بل وممحية.

تتجمع حشود هائلة من هياكل عظمية، أمام الشرفات، لا أدري من أين أتت بهذه الكثافة. يرفع كل هيكل بندقية بيد، وصورة زعيم باليد الأخرى. تتهادى أمواج صور الزعماء جميعهم معًا، مختلطة في تراقص مجنون. تنتفخ بزات الزعماء، عندما يرون صورهم، تتوالد بمقدار عدد الهياكل. يزعق الزعماء معًا، كل واحد بلغته، أفهم جميع اللغات. يلوحون بأيديهم بعصبية، وهم يلقون العبارات نفسها، بالكلمات نفسها؛ ترجمة فورية، لنص يلقنهم إياه أحد ما، قابع في الأعالي بالخفاء. يتوقفون قليلًا، ينظرون إلى السماء، فيهبط عليهم الوحي، ويكملون الخطابات. تردد الهياكل العظمية، بقعقعة الفكوك، عبارات التمجيد، بأصداء تهتز لها الأجواء؛ «يعيش الإله»، ويركعون بطقوس صلوات وثنية. أمام أمواج جماهير الهياكل العظمية، تنتصب الأعضاء الجنسية الذابلة للزعماء، تتضخم بحيث تبرز عاليًا فوق الشرفات، وتقذف سوائلها على المحتشدين بكثافة، خليطًا من البول والمني، فيغتسلون بها.

تلتفت الهياكل العظمية المحتشدة إليّ، يكتشفون أني الوحيد

على شرفة، بملابس مدنية، دون حراسة من مسوخ، ولا ألقي خطابًا حماسيًا. تحدُثُ بلبلة في صفوفهم، يتوجهون نحوي ببنادقهم، يطلقون الرصاص غزيرًا. يصيبني الهلع، وأنا كنت أظن نفسي هنا، في «المنفى»، بأمان. إلى أين أهرب، وهم يملؤون كل الأمكنة؟ ليس أمامي إلا العودة إلى الشقة. أدخل، أجد الجثث فيها ترتعد مذعورة، تتقافز مع أزيز الرصاص، دون أن تعرف ماذا تفعل. ما إن ترني حتى تلتف حولي، مستنجدة بي. بالتأكيد، لديها ذكريات سيئة عن الموت، في داريا. لكن هل لدى الجثث ذكريات؟

هربت من الموت «هناك»، في داريا، فأجد الموت «هنا»، في المنفى؟ ستبدأ مجزرة جديدة، في «المنفى». لماذا تلاحقني «المجازر» أينما ذهبت؟ هل أعود إلى «هناك»، رغم الخراب والدمار، الذي غادرته؟ على الأقل، سألتقي بمحمد، وحسن، وخليل، ووفاء. يعيشون مآسي التهجير، لكنهم هم أهلي، سنتضامن معًا في وجه مصاعب الحياة. هذا أفضل من الموت، من جديد «هنا». لكن كيف أعود إليهم، ورصاص الهياكل العظمية بدأ ينفذ إلى داخل الشقة. ليس لي إلا المرآة، رأيت صور أهلي من داريا فيها، وجثثي قدمت إليّ عبرها.

تصل الهياكل العظمية إلى الشرفة، تتسلقها، الرصاص يلعلع، الآن، في الشقة. أقف امام المرآة، تلتم الجثث حولي، تأخذ بالذوبان في جسدي. أصبح أنا كلها. في اللحظة، التي تدخل فيها الهياكل العظمية إلى غرفة النوم، أقفز في المرآة، وأغادر عالمي... «هنا» أم «هناك»؟ تختلط عليّ الأمور، يختلط عليّ المكان والزمان. المهم أني قفزت، ونجوت.

أنا، الآن، في «البلاد»؛ في داريا، أعرفها من رائحة الذكريات، رغم الدمار والخراب، الذي حل بمنازلها، من رائحة كروم العنب، وحقول القمح، والبساتين، رغم احتراقها. الشوارع مقفرة، الظلمة والصمت يطبقان عليها. أستطيع رؤية خيالات الأشياء، على تراقص نيران الحرائق، المشتعلة في كل مكان؛ فقط خيالات الأنقاض، دمار في كل مكان. إنما لا ألمح أي خيالات أشباح، تتحرك. يبدو أني وصلت ليلًا، قريبًا سينبلج الفجر، سألتقي، عندئذ، ببعض الأهالي، ممن لم يغادروا البلدة. لكن أين ينامون في هذا الدمار المنتشر؟ ثم عليّ أن أكون حذرًا، فقد «ألتقي «الجنود الغرباء»، وقد نشروا حواجزهم على مفترق الطرقات، ومداخل الحارات، ويعيدون إعدامي.

أجول في الشوارع ساعات وساعات، على ضوء الحرائق، بحيث فقدت الإحساس بالزمن، والليل مخيم دائمًا، والصباح لا يطلع أبدًا، ولا حتى خيط ضوء يبشر به. لا أبواب أقرعها، لا نوافذ أتطلع عبرها، فقط أنقاض. لا أصادف أحدًا، حتى «الجنود الغرباء»، الذين احتلوها، غير موجودين. أنا وحيد طوال الوقت، أدور في متاهة الشوارع مثل مجنون، فقد عقله بالكامل، أو مازال يحتفظ ببعض من وعيه، كي يدرك الجنون حوله. ربما تم إعلان «البلدة» منكوبة، وأغلقت، لسبب ما؛ البراميل والصواريخ التي لم تنفجر. لكن حتى على أطرافها، لا أرى أحداَ.

ينبغي أن أغادر داريا، وأمضي إلى «البلدات» المجاورة. سأجد هناك محمدًا، ووفاء، وزوجها الصيدلي، ومن يلتف حولهما من بقايا العائلة، سأجد تجمعات أهالي بلدتي المهجرين، ممن نجوا من الموت. ثم سأمضي بعد ذلك إلى «دمشق»، حيث يسكن حسن وعائلته، وسميرة وابنتيها بشيرة وخلود.

أقف على طرف الطريق، المؤدي من العاصمة إلى بقية «بلدات الغوطة الغربية». ماتزال الظلمة مخيمة، والصمت مطبقًا؛ لا سيارات تعبر الطريق، في الاتجاهين، لا أناس عند مواقف الحافلات، لا حواجز جنود. حتى الحيوانات على الأرض، والطيور في السماء، اختفت. لا شيء سوى حرائق في بقايا حقول. الليل لا ينجلي، والصباح لا يطلع. هل المنطقة مغلقة عسكريًا؟ أم تم ضربها بالكيماوي ثانية؟ أو ربما نزلت بها كارثة طبيعية؟ لكن ستبقى دلائل ما؛ جثث، حطام سيارات، فرق إنقاذ. لا شيء، لا أحد.

أتحول إلى نسر؛ روح تحلق في السماء. أصل إلى الأعالي، أجد هناك شمسًا مشرقة، وضياء نهار منتشرًا. في الأسفل، ما يزال الظلام مخيمًا، تُبدد بعضًا منه نيران حرائق. أحوم وأحوم، يذهلني ما أرى، الظلام في الأسفل، يطبق على كل مكان. أقرر الهبوط في عتمة «بلدة». أجول في الشوارع. هنا، بعض الأبنية ناهضة، في قلب الأنقاض، أقرع الأبواب، أنقر بشدة على زجاج النوافذ، أصرخ مثل معتوه «محمد، ريما، حنين، أيهم»، أنادي بكل أسماء العائلة، الأحياء والأموات. لا أحد يرد. لا أهالي، لا مهجرين، لا «جنود غرباء»... لا أناس.

أحوم من جديد في السماء، وأهبط، بعدة نسخ مني، تتوزع كل واحدة، في عتمة قرية، بلدة، مدينة... لا ناس. ربما هرب الجميع لسبب ما، ويتجمعون في العاصمة دمشق. سأمضي لعند حسن، وأستطلع منه الوضع.

تحلق نسخة مني، بصعوبة أستدل على دمشق، إنما لا مدينة،

لا ناس. الظلام يخيم عليها أيضًا. نيران حرائق تكشف بعض أبنية ناهضة وسط الأنقاض. أخترق شوارع المدينة، من طرفها الغربي، إلى طرفها الشرقي، من «ساحة الأمويين» إلى «ساحة العباسيين»، لا سيارات، لا أسواق مفتوحة، لا حواجز «جنود غرباء»، لا ناس. هل هجرها أناسها، أم تم تهجيرهم؟ غير معقول، حتى «الغرباء»، الذين استباحوها، اختفوا.

من فرّغ «البلاد» من أناسها؟

فراغ، خواء، لازمان ولا مكان... عدم.

أسبح مع عرافات عشر في فضاءات معبد قديم، خارج المكان والزمان. نهضت أعمدته من غمام، دون أرضية، وتضيع معالمه وتخومه في لا نهايات حلم كوني. أهيم، حيث لا اتجاهات، تتتالى أسئلتي للعرافات.

«ماذا يحدث؟ لماذا هذا الموت؟ ما الذي يستثير في الإنسان الرغبة بالقتل، بالمجازر الوحشية، طقوسًا لإرضاء إله، لا يرتوي من الدماء؟».

تتتالى أصوات العرافات، في أرجاء المعبد، تراتيل طقسية:

«في ذاكرتك حرائق، التهمت الأخضر واليابس، الشجر والحجر، تستمر منذ أن وجد العالم».

«كنت في «منفى»، وذهبت إلى «منفى» جديد. هو في داخلك، يلاحقك باستمرار. هي الحروب تمزق الأرواح.

«الدم رمز طقوس وحشية لإله استيهام، يتربع في العقول، غافيًا على عرش، نحن صنعناه له».

«من أنا؟».

داريا الحكاية

احفظوا أسماء أنواع عنبنا في داريا؛ "الزيني"، و"البلدي"، و"الحلواني"، و"خدود الست"، و"الأحمر الدوماني"، و"السوادي"، و"الإفرنجي". لا تنسَوا "الحكاية"، دعوها منسوجةً بعمقٍ في الذاكرة؛ الأرض رُويت بدماء الأجداد، فلا تتخلوا عنها لـ "الغزاة الغرباء".
جدُّكم كان حقل قمح، عشقتُ ذهبَ سنابله. منحتُه قبلة الحياة، ذات فجر، فنهض ابنًا لي، وأضحى شابًا، متدفقًا بالنشاط. أودِّعكم، سأترك ابني؛ جد العائلة، يكمل "الحكاية"-



مازن عرفة

كاتب سوري مقيم في ألمانيا، من مواليد قطنا بريف دمشق 1955، يحمل إجازة في الآداب-قسم اللغة الفرنسية من جامعة دمشق 1983، دكتوراه في العلوم الإنسانية تخصص علم المكتبات والمعلومات من جامعة ماري كوري سكودوفسكا في مدينة لوبلين-بولونيا 1990. من مؤلفاته: العالم العربي في الكتابات البولونية في القرن التاسع عشر (باللغة البولونية)، لوبلين 1994؛ سحر الكتاب وفتنة الصورة: من الثقافة النصية إلى سلطة اللامرئي، سوريا، دمشق، دار التكوين، 2007؛ وصايا الغبار (رواية)، سوريا، دمشق، دار التكوين، 2011؛ تراجيديا الثقافة العربية، سوريا، دمشق، 2014؛ الغرانيق (رواية)، مؤسسة نوفل، بيروت، 2017؛ سرير على الجبهة (رواية)؛ مؤسسة نوفل؛ بيروت؛ 2019؛ الغابة السوداء (رواية) تصدر قريبًا عن دار نشر رامينا، لندن.

السعر: 10 دولارات

9 786256 928404

ميسلون للثقافة والترجمة والنشر
Maysaloon for Culture, Translation and Publishing